القسم الثانى

قريش بَعْد الإسلام

قُرَيش والإسْلام فى مَكّة

الفترة المكّيّة الأولى :

مِن نُزول الوَحى إلى الخُروج مِن دَار الأرقَم :

تعودنا أن نتتبع تاريخ الإسلام من داخل الجماعة الإسلامية ، وتعودنا أن ندرس تطور الجماعة الإسلامية ونحن وقوف إلى جانب رسول الله ﷺ ومن معه ، ونحاول الآن أن ندرس هذا التطور فى المعسكر الآخر أى من ناحية المكيين ، ونتتبع تطور نظرة القرشيين إلى الإسلام وجماعته .

خلال الشهور الأولى من البعثة وبعد انتهاء فترة الوحى وتتابعه استوثق محمد من أنه رسول الله إلى الناس ، وتوالت آيات القرآن تفصل له أمر رسالته وفحواها . والقطع العشر الأولى من القرآن الكريم ، وهى التى نظن أنها أُوحِيت إلى رسول الله ﷺ خلال الأشهر الأولى للبعثة بما فى ذلك « الفترة » هى :

١) الآيات الخمس الأولى من سورة العلق:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [العلق] .

٢) والآيات السبع الأولى من سورة المدثر ، وهى رقم (٧٤) :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦ ﴾ [المدثر] .

وتلك هى الآيات التى نقلت محمداً ﷺ من النبوة إلى الرسالة . أصبح نبياً رسولاً . أصبح الآن مكلفاً بحمل رسالة إلى البشر ، فعليه من الآن أن ينذر ، ولكى ينذر لا بد

أن يتطهر ويهجر الرجز ولا يتعجل الوحى أو يستكثر منه ، فكل كلام الله سيأتيه بحسب تقدير الله ، وعليه الآن أن يصبر على أمر الله سبحانه .

٣) سورة قريش ، وهى رقم ١٠٦ فى المصحف :

وفيها يُذَكِّر الله سبحانه قريشاً بنعمة الإيلاف التى مهدت الطريق لرحلتى الشتاء والصيف ، وهى أساس رخاء قريش ونعمتهم ، وعليهم لذلك أن يعبدوا الله رب هذا البيت وهو الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

وتلك هى المرة الأولى التى يذكر فيها القرآن قريشاً دون أن يمسَّ ديانتها ، ولكنه يأمرها بأن تعبد الله رب البيت .

٤) سورة والضحى ، وهى الثالثة والتسعون فى ترتيب المصحف :

وكلها موجهة نحو محمد ﷺ والمسلمين تبعاً لذلك ، وهى تُذكِّرهم بنعمة الله عليهم بالهدى وما تولى به محمداً من العناية ، وتأمره بالرفق باليتيم والسائل والتحدث بنعمة الله .

٥) سورة « الشرح » أو « ألم نشرح لك صدرك » وهى الرابعة والتسعون فى ترتيب المصحف :

وهى تُذكِّر الرسول بما شرح الله به صدره من القرآن والهدى وكيف وضع الله عن رسوله أوزار الجاهلية وأزال من نفسه الخوف الذى اعتراه أول الرسالة ، ورفع بذلك كله ذكره ويعده بأن بعد العسر يسراً ، وعليه لهذا أن يرغب إلى الله سبحانه .

٦) سورة العصر ، وهى الثالثة بعد المائة فى ترتيب المصحف :

وهى من قصار السور وهى سورة تذكير من الله للإنسان بصورة عامة بأنه خاسر إلا إذا آمن وعمل صالحاً وتواصى بالحق والصبر .

٧) سورة الشمس ، وهى الحادية والتسعون من سور القرآن :

وهى تلفت نظر الإنسان إلى بديع خلق الله وآيات الخلق من الشمس وضحاها

والقمر الذى يطلع بعد تغيبها والنهار والليل والسماء ومن بناها والأرض ومن بسطها ، ثم نفس الإنسان وكيف خلقها الله خلقاً سوياً ووضع أمامها طريق الشر وطريق الخير ، وكيف أن الذى يزكى نفسه أى يطهرها يصلح ، ومن يدنس نفسه يخيب ، ثم يُذكِّر الله الناس بما أصاب ثمود وكيف أساء إليها أشقياؤها ، ويشير الله إلى الناقة التى عقروها فنزل بهم من الله عقاب شديد .

٨) سورة الماعون ، وهى السابعة بعد المائة فى ترتيب المصحف :

وفى أول هذه الآية أول ذكر لخصوم الدعوة وبعض ضعفائها ، فهناك من يكذِّب بالدين ، وهذا هو الجافى القلب الذى يسىء إلى اليتيم ولا يدعو إلى إطعام المسكين ، وفى المؤمنين من يسهون عن الصلاة ويراءون الناس ويمنعون تقديم العون للمحتاج.

٩) سورة الطارق ، وهى السادسة والثمانون فى ترتيب المصحف :

وهى من أولى سور التذكير بعجيب خلق الله سواء فى الكون المادى : خلق الكون والإنسان . أو سر النفس الإنسانية وما خصها به الله من الإيمان ، وإشارة إلى قدرة الله على بعث الناس يوم البعث والنشور يوم يمتحن الله الناس بما فى سرائرهم وما تنطوى عليه نفوسهم ، وفى الآيات الأواخر من السورة تذكير بالسماء ذات الرجع والأرض التى تتصدع إذا شاء الله وتوكيد بأن كلام الله هذا فَصْل بين الضلالة والهدى وهو جِدٌّ صارم وليس موضع هزل ، وفى نهاية السورة إشارة إلى أن هناك من يكيدون للإسلام والمسلمين وتذكير بأن الله يكيد لهم كيداً ﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق] وهذه السورة من سور عجائب الخلق ، وقد أكد القدامى القول فى تفسير أسرارها ومعانيها ، وجاء المحدثون يرون فيها إشارات بينات إلى عجائب ما يكشف عنه العلم من أسرار الكون والنفس .

١٠) سورة التين ، وهى الخامسة والتسعون فى ترتيب المصحف :

وهى من السور التى كثر اختلاف المفسرين حولها ، فهل الله سبحانه يقسم هنا بالتين أم بجبل يسمى جبل التين ، وبالزيتون أم بجبل الزيتون ثم يقسم بطور سيناء ،

أى جبل سيناء وكل هذه تمهيدات ذات معان وأسرار تخلص منها السورة إلى البلد الأمين ، ويختلف المفسرون هنا مرة أخرى ، فهل المراد مكة أم غيرها . ثم حقيقة كبرى تتصل بالعقيدة الإسلامية وخصائصها ، فإن الله سبحانه خلق الإنسان فى أحسن صورة فى الجنة ثم أهبطه إلى أسفل سافلين أى الأرض حيث ضل ضلالاً بعيداً إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات واجتهدوا فى عمارة الأرض ، فهؤلاء لهم عند الله أجر عظيم ، وما شأن أولئك الذين يُكذِّبون بالدين إلا يعرفون أن الله سبحانه أحكم الحاكمين ؟

١١) سورة الزلزلة ، وهى التاسعة والتسعون فى ترتيب المصحف :

وهى من السور المنذرة التى تدعو الناس إلى الإيمان بالله عن طريق تصوير أهوال يوم القيامة مع التوكيد الواضح على أن الله سبحانه هو الذى يزلزل الأرض فتُخرِج أثقالها فيتساءل الإنسان عما جرى لها فيعرف أن الله سبحانه هو الذى أوحى لها . وهنا يبعث الناس ويخرجون جماعات ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة من الخير خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة من الشر شراً يره ويحاسب عليه .

١٢) سورة القارعة ، وهى الأولى بعد المائة فى ترتيب المصحف :

وهى شبيهة بالسابقة من حيث المضمون والغاية ، فهى تصور جوانب أخرى من القيامة والبعث والحساب . وفى نهايتها ذكر للنار الحامية مصير الكافرين والمكذبين .

١٣) سورة العاديات ، وهى المائة من سور القرآن بحسب ترتيب المصحف :

وهى تسير فى نفس اتجاه القارعة من حيث تنبيه القلوب والعقول إلى مرور الأيام بالإنسان سريعة دون أن ينتبه ، والصور التى تفتتح بها السورة تشير إلى عَدْو الخيل أو الجمال فى الطريق إلى مناسك الحج حتى « جمع » وهى مزدلفة ثم تنبه الإنسان إلى جحوده ، وهو يعلم أنه جحود وهو شديد الحب للمال ، وهو لا يعلم أنه إذا جاء البعث - كان مصيره إلى الله الذى يعرف عنه كل شىء .

وهذه السور جميعاً بكل ما فيها من تنبيه إلى الحق يهز القلوب ويبعث فيها الخوف لا تثير عند الجاهليين أى انتباه جاد ، فمحمد فى رأيهم إلى الآن رجل لا يدرون ماذا

أصابه ولا حقيقة ما يقول ، فهو يتحدث إلى من يصغى إليه ، إلى الفئة القليلة التى التفت حوله ، وليس عليهم فى ذلك بأس ، فإن الكلام الذى يتلوه محمد كلام وعظ تصوروا أنهم يسمعون مثله من الكهان ، وهم لم يفكروا فيه ولماذا يفكرون ؟ إن محمداً وجماعته قليلون وهو يقول إنه يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق ، وهم يحسبون أنهم أخيار وأنهم على مكارم أخلاق وهو رجل كريم حسن المعشر طيب القلب لا يضيرهم فى شىء وهم منصرفون إلى تجاراتهم وأموالهم ، فماذا يعنيهم من أمره ؟

وربما شعر بعض كبرائهم بعدم الارتياح لرؤية نفر من الفقراء والرقيق يجلسون حول محمد إلى جوارهم فى الكعبة ، ولكنهم كانوا مستعدين لاحتمال ذلك ، ولكن سورة الليل ، وهى الرابعة عشرة فى ترتيب النزول والثانية والتسعون فى ترتيب المصحف حملت شيئاً جديداً ، ففيها إشارة وتحذير وإنذار لمن بخلوا واستخفوا وكذَّبوا بالحسنى ، وهى من هنا كانت جديرة بأن تجبر القرشيين على إعادة النظر فى الكلام الذى يقول محمد إنه يتلقاه من السماء ، فهو ليس كلام كهان أو سحرة وإنما كلام له معان بعيدة ومرام حقيقية تستحوذ على القلب والذين دخلوا فى دعوة محمد متأثرون به تأثراً عميقاً ، وقد تبدل فيهم كل شىء وأخذتهم الدعوة أَخْذاً ، وهذا أمر لا يمكن أن يكون هيِّناً ولا هزلاً .

ولنقرأ سورة الليل هذه لنرى مصاديق ذلك :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل] .

فهنا إشارات واضحات إلى أن هناك ناساً بخلوا واستغنوا وكذَّبوا بالحسنى ، وهؤلاء سيلقون من الله عذاباً ويعانون عسراً ، والغنى منهم لن ينفعه ماله إذا تعرض لغضب الله ، وهنا إنذار بنار تتلظى لا يصلاها إلا الأشقى .

فلا بد أن الاحتكاك والتذامر بدأ بين المسلمين والكفار ، بين الفقراء إلى الله - وهم الأغنياء بالإيمان - والأغنياء بالمال - الفقراء من الإيمان - فالأولون سَيُجْزون أحسن الجزاء ، والآخرون سيلقوْنَ شر العقاب .

هنا نرى بدايات التفات كفار قريش إلى هذه الدعوة وما تعنيه وما تنذر به ، وقد كانوا كما حكمنا أذكياء ذوى فهم وكانوا أغنياء والغنى شديد الحساسية بماله ولماله ، والذين يتلون هذا الكلام بعد محمد كان فيهم الكثيرون من الفقراء والضعفاء ممن كان المكيون لا يكادون يحفلون بهم أو يرون لهم قدراً .

وهكذا ، شيئاً فشيئاً وخطوة فخطوة تثور الشكوك والمخاوف فى نفوس القرشيين، فهذا الكلام الذى يتلوه محمد وأصحابه موجه إلى الناس أجمعين ، ولكنه يعنيهم بصورة خاصة ولا بد أن بعضهم كذَّب الدعوة وبخل بماله واستغنى ، فهذا ولا شك مقصود بالإنذار ، والنار التى ترد فيما يتلوه محمد تنتظرهم مع أمثالهم وتتأكد هذه المعانى وتزداد المخاوف عندما تتنزل سورة الانشقاق وهى الخامسة عشرة من حيث التنزيل والرابعة والثمانون فى ترتيب المصحف ، فنجد فيها نذيراً يرهب القلب لكل من صم أذنيه عن هذه الدعوة ، وخاتمتها تقول :

﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) ﴾ [الانشقاق] .

فها هنا ذِكْر لبدايات الصراع بين القرشيين والإسلام ، فبعضهم يُكذِّب ، وبعضهم يزرى بالمؤمنين ، وبعضهم يستصغر الدعوة وأهلها .

ثم تجىء سورة الأعلى وهى التاسعة عشرة من ترتيب التنزيل ، والسابعة والثمانون من ترتيب المصحف وهى تستهل بالدعوة إلى تسبيح الله الأعلى الذى خلق كل شىء وقدَّر فهدى وأطلع النبات ثم جعله هشيماً ، وكل هذا يقرئه الله سبحانه لرسوله ، وتنتهى السورة بآيتين تكشفان عن جانب من حقائق الدعوة :

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى] .

فهنا تتأكد الصلة بين دعوة إبراهيم وما يتلوه محمد فقد ورد بعضه فى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ، ومحمد ليس بساحر ولا كاهن ولا مجرد واعظ ، بل هو نبى رسول وما يقوله كلام سماوى عظيم كمثل الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى . ومثل هذا الكلام لا يمكن أن يؤخذ مأخذاً هيناً ، ومحمد لا يمكن أن يقف عند مجرد القراءة بين أصحابه ، ومن ثم فلا بد من اتخاذ موقف منه ومن دعوته .

إن معظم مؤرخى السيرة وعلماء القرآن يقولون إن بداية العداوة بين المسلمين والمشركين كانت عندما أمر الله محمداً بأن ينذر عشيرته الأقربين :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) ﴾ [الشعراء] .

ولكننا فى دراستنا لموقف قريش من الدعوة لا زلنا بعيدين جداً عن آيات سورة الشعراء تلك ، حقاً إن تلك الآيات وبعض ما سبقها ولحق بها من سورة الشعراء تعتبر السورة السادسة والعشرين فى ترتيب التنزيل ، ولكنها تعين مرحلة بعيدة من مراحل تطور الدعوة ، ففيها إشارات إلى أشياء كثيرة وقعت بين المسلمين وخصومهم وهى إذن كانت بعد أن بدأ الصراع الصريح بين الجانبين ، وبعد أن استقر الخوف من الدعوة فعلاً فى قلوب نفر كبير من القرشيين .

فبعد سورة الأعلى التى ذكرناها وهى السادسة عشرة من حيث التنزيل تجىء «عبس وتولى » وهى السابعة عشرة فى التنزيل والثمانون فى ترتيب المصحف ، ثم تكون سورة التكوير وهى الثامنة عشرة فى التنزيل والحادية والثمانون فى ترتيب المصحف ، ثم الانشقاق وهى التاسعة عشرة فى التنزيل والرابعة والثمانون فى ترتيب المصحف ، ثم النازعات وهى العشرون فى التنزيل ، والتاسعة والسبعون فى ترتيب المصحف ، ثم الغاشية وهى الحادية والعشرون فى النزول حتى نصل إلى الآيات التى ذكرناها من سورة الشعراء ، وفى هذه السور كلها آيات تتحدى وأخرى تنذر وثالثة تدل على أننا قد أوغلنا بالفعل فى الصراع وتحددت المواقف .

ويصعب تحديد الآيات التى يمكن اعتبارها إنذاراً بتغير حاسم فى موقف غلاة

القرشيين ، لأن المتتبع لآيات القرآن على النحو الذى ذكرناه يحس أن ثوران العواطف جاء شيئاً فشيئاً ، فالقرآن يتنزل ورسول الله يقرئه أصحابه ، وأصحابه يزدادون إحساساً بأنفسهم ووعياً بدينهم . وهم يجلسون إلى نبيهم حول الكعبة خاصة فيقرأون قرآنهم ملتفين حول نبيهم وهم يزدادون عدداً وجرأة يوماً بعد يوم ، والقرشيون الذين نظروا إلى تلك المشاهد أول الأمر فى غير اكتراث بدأوا يضيقون الآن بهذه الجماعة التى لا تكتفى بقراءة ما تقرأ فى صمت ، بل يتجمع بعضها إلى بعض ويقرأون جماعة وفى صوت عال ، وكان القرشيون يظنون أول الأمر أنه سجع لكهان أو نجوى جماعة من الباحثين عن الحق أو الحنفاء ، ولكنهم عندما أصغوا إلى لفظ القرآن ومعانيه المنبثة فى السور والآيات التى ذكرنا بعضها أحسوا أن هذا الكلام يتضمن تحدياً وتهديداً لهم وإزراء بهم ، فجعلوا يسخرون من المسلمين وما يقرأون ، وأخذ بعضهم يُكذِّب ما يسمع ويستصغر شأنه ، وربما دخل فى مناقشات مع المسلمين .

وعندما أنزل الله آيات سورة الكافرون وهى الخامسة والأربعون مما أنزل من القرآن والتاسعة بعد المائة فى ترتيب المصحف نجد أننا قد قطعنا بالفعل مرحلة طويلة من مراحل مسيرة الدعوة وأن الموقف قد انحسم بين الإسلام وخصومه بشكل واضح ، خاصة وقد سبقتها سورة الإخلاص (الرابعة والأربعون فى التنزيل ، الثانية عشرة بعد المائة فى ترتيب المصحف) وهى سورة التوحيد الخالص الجامع المانع . وسور أخرى مثل الهمزة والمسد والكوثر ، والمدثر وأخواتها وكلها سور واضحة المعانى بينة الإشارات تدل على أن المعركة كان يحمى وطيسها يوماً بعد يوم . ثم تجىء سورة الكافرون لتحدد أن هناك دينين متعارضين غير متصالحين وهما دين الله الحق ودين الكفر ، والمسلمون يرفضون رفضاً باتاً عبادة ما يعبد الكافرون وهؤلاء من ناحيتهم لن يعبدوا ما يعبد المسلمون ما دام الكافرون على موقفهم من العناد . وكل من الجانبين له دينه. هنا نشعر أن السورة فاصلة فى مسار تطور انتشار الدعوة وموقف القرشيين منها ، وهم يوصفون الآن بأنهم الكافرون ، وهى كلمة دامغة لا يرضى عنها القرشيون .

وهـذه الآيـات والسـور كلها - السابقـة علـى - « الكافـرون » يبدو من أسلوبها وسياقها ومعناها أنها نزلت متلاحقة فى وضع متقارب لكى يبنى عليها إيمان المؤمنين ويتبين لهم منها حقيقة ما يؤمنون به - وفيها كذلك نذر وتحذيرات وإشارات إلى بعض الممارسات الجاهلية الخارجة عن الأخلاق مثل سورة المطففين .وكلها تنزلت فى الدور الأول من الفترة المكية ، التى تشمل سنتين سابقتين على دار الأرقم وثلاث سنوات فى دار الأرقم ، لأن الخروج منها كان - كما سنرى - فى الشهور الأخيرة من السنة الخامسة للبعثة(١).

وبعد هذا التتبع لنزول السور والآيات الأولى ووَقْعها عند المسلمين من ناحية والكافرين من ناحية أخرى ، نعود إلى القرشيين لنتتبع تطور موقفهم من الإسلام .

---

(١) رجعت فى عمل هذا الترتيب إلى أمهات ما كتب المسلمون فى أسباب النزول وتوضيحه ، وأهمها بحسب اعتمادنا عليها :

النسفى : مدارك التنزيل وحقائق التأويل . القاهرة ١٣٤٤ هـ .

القمى : التفسير . طهران ١٣١٣هـ .

الرازى : مفاتيح الغيب . القاهرة ١٣٢١هـ .

السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن . القاهرة١٢٧٣هـ.

الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن . القاهرة ١٣٢٢-١٣٣٠هـ .

طنطاوى الجوهرى : الجواهر فى تفسير القرآن . القاهرة ١٩١٣هـ .

الواحدى : أسباب النزول . القاهرة ١٩٤٥ م .

وكتاب تاريخ القرآن الذى ألفه بالألمانية نولدكه وشفالى واشترك معهما فيه علماء ألمان آخرون مثل برجستريسر ونشروه فى ثلاثة أجزاء بيانها كما يلى :

الاسم العام للكتاب :

Theodor Noeldeck, F. Sckwally Geschichte des Qorans.

وتفصيل الأجزاء كما يلى :

المجلد الأول عن أصول القرآن

1. Noeldecke u. Schwally, Verber den Ursprung des Qorans , Leipzig 1919.

والمجلد الثانى عن جمع القرآن

2. Schwally , Die Sammlung des Qorans Leipzig 1919 .

والجزء الثالث هو الذى يتضمن ترتيب آيات القرآن من حيث النزول

3- g. Brgstraesser und O.Praezel , Die Geschichte des Qoran Texts,Leipzig . 1939 .

وهذا المجلد الثالث يقع فى ثلاثة مجلدات صغار .

ويضاف إلى هذه الكتب الاستشراقية كتاب يعتبر من أهلها فى ذلك الموضوع هو :

Regis Blachère, Le Coran . traduction selon un Essai d'arrangement des Sourates . Paris 1947-1951 .

ويقع فى ثلاثة أجزاء . والجزء الأول منها مقدمة .

وغنى عن البيان أننى لم أعتمد على مؤلفات المستشرقين إلا للإفادة والاستئناس والاستطلاع ، وآراؤهم فى الموضوع مغرضة صادرة عن سوء نية . وهذا هو رأينا كذلك فى كتاب يحتفل به المستشرقون ويولونه اهتماماً كبيراً رغم ما فيه من التعسف الظاهر والإسفاف الواضح وهو :

Richard Bell , The Quran . With a Ciritical rearrangement of the Suras .

يذهب مؤرخو السيرة إلى أن القرشيين لم يكترثوا للدعوة الإسلامية إلا عندما تناول الرسول آلهتهم بما لا يرضيهم ، وقال عنها إنها أحجار لا تنفع ولا تضر وأن عبادتها هباء يدل على غباء. ولكن الحقيقة هى أن كبار القرشيين كانوا قد بلغوا درجة من الغنى والغرور بالنفس بلغت بهم كل مبلغ ، ولم يكن كبرياؤهم ليسمح لهم بأن يتحملوا من محمد ﷺ أى نقد لهم أو لآلهتهم ، وهم لم ينتظروا حتى يسب محمد آلهتهم بل كان تحركهم لأذاه وأذى أصحابه قبل ذلك بكثير .

وقد رأينا أن أبا جهل وجماعته من أتراب محمد ﷺ فى السن لم يُوفَّقوا فى تصديهم له وكادت تقع فتنة فأسرع كبار القرشيين لتلافيها ، وكانوا يصطافون فى ضياعهم فى الطائف ، فروَّعتهم أخبار الفتنة بين المسلمين وخصومهم فأقبلوا وحاولوا استرضاء رسول الله وكسبه إلى جانبهم ظناً منهم أنه طالب سلطان أو مال أو طامع فى لعاعة من لعاعات الدنيا ، فوجدوه شيئاً آخر لم يخطر على بال ، وجدوا أنفسهم أمام رجل يقول إنه نبى مرسل لإصلاح الدنيا وأهلها ، وسمعوه يتلو القرآن ، فَراقَهم معناه ومبناه وأحسوا أنه لا يمكن أن يكون كلام بشر . فقالوا إنه ساحر ومضوا يدبرون أمرهم ليحموا أنفسهم من دعوته ، وقد مس شعورهم ونال من كرامتهم الكلام الذى يقوله ولم يطيقوا عليه صبراً .

ذلك أن أولئك الناس ذهبوا مع الغنى وقوة الحياة مبلغاً بعيداً بسبب ما تحصَّل لهم من الأموال وما أوصلتهم إليه الأموال من سيادة على الناس . وقد تحدثنا عن التجارة المكية وما وصلت إليه من الانتظام بفضل ما وضع لها هاشم بن عبد مناف من نظم مكنت لهم مع الزمن من أن يجمعوا من ورائها ثروات طائلة ازدادت قوتها على الناس نتيجة فقر المجتمع من حولهم . ولما كان أولئك السروات هم فى نفس الوقت أصحاب السلطان فى ذلك المجتمع المكى فإنهم لم يجدوا من يوقفهم عند حدودهم إذا هم ظلموا أو تجبروا .

ومن هنا فقد غلبت عصبة الأحلاف أو لعقة الدم على جماعة بنى هاشم وأصحاب الفضول ، فازدادت كبرياؤهم ولم يعودوا يحتملون من أحد نقداً ، ومن هنا

فإن الإشارات القرآنية التى نقدت مسلكهم ووصفتهم بالكفر والقسوة والظلم والتطفيف فى الكيل وغش الناس كانت كافية لأن تثير غضبهم وتجعلهم ينظرون إلى محمد ﷺ على أنه عدو وإلى الذى يدعو به على أنه حركة معادية .

وقلنا : إن أولئك الناس وضعوا لهذه التجارة نظاماً محكماً فكان كل قرشى أو قرشية يريد المساهمة يسهم بما يريد ويدون ذلك فى سجل ، فإذا عاد رئيس القافلة - وكانت تسمى العير أو اللطيمة - كان أول ما يفعله هو التوجه إلى دار الندوة حيث يعطى - إذا استقام هذا التعبير الحديث هنا - بياناً عن نتائج رحلته وخاصة مقدار الربح الذى تحصَّل . وفى بعض الأحيان كانت الأرباح تصل إلى قدر رأس المال ، أى مائة فى المائة كما نقول ، فمن دفع عشرة دنانير استردها عشرين ، وكان ذلك ربحاً عظيماً جداً ، يدل على ذكاء ومهارة وكان معظم التعامل بالدنانير الذهبية المسماة بالهرقلية ووزنها نصف وزن الجنيه الإنجليزى الاسترلينى الذهبى الحالى ، وكذلك بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة . وكان الدينار الذهبى يعدل أربعة عشر درهماً من الفضة ، وكان التعامل يتم أحياناً بالمقايضة أو بالعروض كالأقمشة والآنية والأسلحة وما إليها مما يمكن تقييمه مالياً أو ما يمكن اتخاذه قاعدة للتبادل التجارى .

وقد درس موضوع التجارة المكية الويس سبرنجر فى كتابه عن محمد ﷺ ، وهو كتاب سيء فيه تعصب بالغ من الناحية الدينية ، ولكنه فيما خلا ذلك لا يخلو من حقائق ذات أهمية وقد قدر أن قيمة التجارة والأموال التى كانت تُتداول فى مكة على طول العام بربع مليون دينار من الذهب ، وقد بلغ من ثقة أولئك الناس بأنفسهم أن أحدهم رُوى عنه أنه قال : لقد حسبت أننى لو رفعت حجراً وجدت تحته مالاً ، وكان يقال : من ليس بتاجر فليس بشيء ، وعير أبى سفيان التى كانت تمهيداً لموقعة بدر كان فيها ألف جمل موسوقة بضاعة ، وهذه الجمال نفسها كانت قد صدرت من قريش قبل قليل محملة ببضائع الهند والصين واليمن وحققت ربحاً عظيماً ، ثم عادت مرة أخرى لتقوم بعملية تجارية مماثلة .

وتظهر مستويات الأرباح التى كانت تحققها تلك التجارة فى حكاية عبد الله بن

جدعان شيخ بنى تيم بن مرة ، فقد بدأ حياته فقيراً ، فلما اكتهل كان قد أصبح من أغنى أغنياء مكة ، وقد زعم الناس أنه وجد كنزاً ، وهذا الكنز فى حقيقته كان التجارة ، وعبد الله بن جدعان كان من كبار رجالها وكان حليفاً لبنى عبد شمس ، وخصماً بالتالى لبنى هاشم ، وكان كبار القرشيين ينفقون عن سخاء لكى يظهروا بمظهر التاجر الموسر الناجح الذى يوثق فيه ، فكان ابن جدعان يقدم للناس الجفان المترعة ثريداً ولحماً فيأكل منها من يريد ، وكذلك كان يفعل أبو جهل .

وهذا الثراء الضخم الذى وصل إليه أولئك الناس كان يغريهم بالاستزادة من الربح بأى ثمن ، ومن هنا كانوا يقرضون المال دون وازع ، فقد روى عن بعضهم أنه كان يقرض المائة دينار لمدة ثلاثة أو أربعة شهور ويتقاضاها مائتين أو ثلاثمائة دينار ، وانتشر ذلك حتى عم الربا وتفاقم وأصبح هو القاعدة ، فشقى الفقراء والمحتاجون . وكان أولئك التجار إما يكتبون بأنفسهم أو يستخدمون كتاباً حاسبين يسمون النسأة وكان الربح فى هذه الحالة يسمى نسيئاً أو نسيئة ، وكان النسأة يغالطون الضعفاء وخاصة الأميين فيزوِّرون فى حساب المال وحساب الشهور أو المدد ويبيحون اليوم ما يحرمونه غداً حسب هواهم ، ولهذا وحماية لإنسانية الإنسان حرم الله الربا ، بل أعلن الحرب على المرابين ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (٢٧٩) ﴾ [البقرة] ولم يرد فى حق أى من الكبائر مثل تلك اللعنة على المرابين ، لأن الجرائم كلها لها حدود . فالقاتل يُقتل والسارق تقطع يده أو يعاقب ، أما المرابى فإنه يعتدى على كرامة الإنسان ويقتله حياً .

وهذا الجشع فى جمع المال هو الذى أثار فى مكة روحاً من التذمر والإنكار ، فإن معظم الناس كانوا مساكين أو فقراء ، ولا يخلو إنسان من الحاجة إلى المال فى وقت ما ، وهنا يقع تحت رحمة أولئك الطغاة ، خاصة وأنهم - أى كبار التجار - يستهينون بالتاجر الصغير الغريب ، فكانوا يأكلون أمواله أو يُسوِّفون فى أداء الرجل حقه حتى يجوع ويعرى ، وقد يؤدى الدَّيْن ببعض الناس إلى أن يصبحوا أرقاء للدائنين حتى يؤدوا ما عليهم . وكان أكثر الناس إقداماً على سوء معاملة الفقراء وصغار الأغراب رجال مثل الوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وأبى الحكم عمرو بن هشام(أبى جهل) .

وفى الناحية الأخرى وقف بنو هاشم - ربما فيما عدا العباس - وحلفاؤهم يمثلون تقاليد عبد المطلب فى الإحسان إلى الفقراء برعاية صغار التجار الغرباء ، ولكن توفيقهم فى ذلك كان قليلاً نظراً لقوة خصومهم أولاً ثم لحاجة الجبهة الهاشمية إلى شخصيات تستطيع استرداد القيادة فى مكة ، وهذا يفسر لنا موقف بنى عبد شمس وبنى مخزوم وحلفائهم من الدعوة إلى الإسلام ، فقد ظنوا محمداً ﷺ يرمى فى النهاية إلى إعادة القوة إلى بنى هاشم ، وهذا كان مفهوم أبى جهل للإسلام ، ولم يستطع أبو جهل تغيير هذا الموقف إلى أن مات .

وبلغ من جشع أولئك الناس وحرصهم على أن يفيدوا من الحج أعظم فائدة مالية ممكنة ، أنهم ابتدعوا ما عرف بالحُمس والحلة ، وكلام مؤرخينا القدامى مهم جداً فيما يتعلق بالحمس والحلة ، فهم اعتبروا هذين المصطلحين وما جرى مجراهما مثل الطَّلَس تدخل ضمن شئون الدين والوثنية الجاهلية ، والحقيقة كما تتجلى لمن يقرأ بإمعان أنها من تنظيمات قريش للإفادة من الحج ، فمن المعروف أن الناس كانوا يحجون بعد نهاية الموسم فى عكاظ ، فيقصدون بما معهم من مال إلى مكة للحج ، فكان همُّ القرشيين استخراج أكبر قدر من المكاسب من الحجاج .

فالحمس فيما يروى ابن سعد عن الواقدى وفيما يقول الأزرقى عن ابن إسحاق عن الكلبى عن ابن عباس : هم قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب ، ويؤكد ذلك السكرى فيقول : إن الحمس هم قبائل قريش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً وكل من نزل مكة من قبائل العرب ، وأما الحلة فهم بقية قبائل العرب ، والطلس هم أهل اليمن وأهل حضرموت .

فماذا كان الحمس يفعلون فى موسم الحج ؟ فيما يقول الأزرقى عن ابن إسحاق عن الكلبى أنهم كانوا « لا يمخضون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حُرُماً ، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه وإنما يستظلون بالأُدم ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ، ويطوفون فى البيت وعليهم ثيابهم ...» ومعنى ذلك أنهم كانوا لا يتمتعون بشىء من الخيرات ، بل يدخرون ذلك ليبيعوه من

الحجاج ، وكانوا يزعمون ذلك نسكاً . أما الحلة وهم بقية العرب الوافدين على مكة فكانوا فى قول السكرى « يحرمون الصيد فى النسك ولا يحرمونه فى غير الحرم ، ويتواصلون فى النسك ويمنح الغنى ماله أو أكثره فى نسكه ولا يدخلون من باب بيت ولا يؤوبهم ظل ما داموا محرمين ، وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم وأخصب ما يكونون أيام نسكهم ، فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم اشتركوا فى ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا فى ثياب جدد ، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء ، يباشرونها بأقدامهم ، فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة ، وكان لكل رجل من الحلة حرس من الحمس يأخذ ثيابه ، فإن لم يجد ثوباً طاف عرياناً ، وإنما كانت الحلة تستكرى الثياب للطواف فى رجوعهم إلى البيت ...» .

وخلاصة هذا الكلام أن القرشيين رتبوا أنفسهم على ألا ينفقوا من أموالهم ولا يستعملوا من أطعمتهم ولا يلبسوا من الثياب الجدد إلا القليل جداً لكى يبيعوه من الحجاج ، أما الحلة وهم الأغراب - وهم معظم الحجاج فكانوا يشجَّعون على الإنفاق ، حتى الطواف كان القرشيون يحفزونهم على أن يكون الطواف فى ثياب جدد ، ومن لا يستطيع شراء ثوب جديد اكترى ثوباً ، وإلا طاف عرياناً . وهذا هو التفسير الذى يقبله العقل بالنسبة لهذه النظم التى كانت سائدة فى مكة قبل الإسلام . أما ذكرها بالصورة المبهمة التى تخلو من المعنى والتى نجدها فى الأصول فأمر لا يقبله العقل ، خاصة وأن القرشيين كانوا ناساً عمليين وماديين فى تفكيرهم ، فكل شىء كان عندهم بمنطق وحساب . وبينما كان قصى وهاشم وعبد المطلب يفرضون على القرشيين مالاً ينفق على الحجاج تقديراً منهم لجلال الحج وما يضفيه على مكة من الاحترام والتبجيل أصبح سادة مكة الجدد يبذلون أقصى وسعهم فى استخراج أكبر كسب من الحجاج ، مما أساء إلى مكة وقريش . وكان الفقراء فيما مضى يفيدون من الحج فيأكل الجائع منهم ويحصل المحتاج على ما تيسر له من حاجاته ، فساء حال الفقراء أيام سيادة بنى عبد شمس ومخزوم وأحلافهما ، وذلك كله واضح فى التفاصيل التى يوردها المؤرخون فى مقدمات البعثة المحمدية .

ونتج عن ذلك أن كثيراً من العرب كرهوا قريشاً وعيَّروها بالبخل والقعود عن

الكرم ، بل رماها بعضهم بالجبن ، وعيَّرُوا قريشاً بكثرة الطعام فسموها سخينة لأن السخينة كانت من أحسن ما يأكل الناس قبل الإسلام وأغلاه ثمناً ، وكان القرشيون يكثرون من أكل أطايب الطعام من اللحوم والثرائد والعصائد والسخينة بسبب وفرة أموالهم فى حين كانت غالبية العرب تتضور جوعاً .

ولكن كتلة قريش ظلت سليمة ، ومحور هذه الكتلة كان بنى هاشم وبنى عبد المطلب وأحلافهم ، وهؤلاء هم الذين حافظوا لقريش على أحسن خصائصها الخلقية والمعنوية ، وعندما ضاقت بقية العرب باستغلال قريش وانفرادها بشئون المال وتجمعت بقية قبائل قيس عيلان لتكسر بالقوة احتكار المكيين ، وقامت حروب الفِجَار ، كان الذين تصدوا للقيادة هم الذين تمسكوا باللواء والقبة والأعنة وما إليها من مسئوليات الحرب ، وهم بنو عبد شمس وأحلافهم ، وكان هؤلاء كذلك هم المسيطرون على شئون التجارة والمال ، وأبلوا فى هذه الحروب بلاءً عظيماً فظهر أمر الأعياص وهم أبناء أبى أحيحة العاص بن أمية والعنابس وهم أبناء حرب بن أمية ، وهنا انتقلت القوة فعلاً إلى بنى عبد شمس وأحلافهم ، بل أصبح لفظ الأعياص يطلق على أهل الملك والقوة بصفة عامة ، وابن خلدون يستخدم دائماً مصطلح «أعياص الملك» وأما العنابس - أى الأُسود - فهم حرب بن أمية وأولاده وأهمهم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية .

وقد أصبح هؤلاء جميعاً سادة أغنياء وأقوياء إلى درجة كبيرة ، وزاد استبدادهم بالفقراء والضعفاء وصغار الأغراب ، وكثرت مخالفتهم للأصول الأخلاقية التى وضعها الذين أسسوا مجد قريش وأسرفوا فى الربا وغالطوا الناس فى الحساب وظلموهم ظلماً بيناً ، وعندما جاء الإسلام ليقضى على ذلك كله وقفوا من الإسلام صفاً واحداً كأنهم البنيان المرصوص. وقد أنكر الإسلام ذلك كله إنكاراً بالغاً ، فدعا إلى إطعام المسكين ورعاية اليتيم وإكرام ابن السبيل (وهو الغريب المار أو الوافد) وقال بالمساواة بين الناس ، فالغنى والفقير متساويان ، وكذلك القرشى وغير القرشى والعربى والعجمى (أى غير العربى) ، وأنكر الوثنية وتقديس الأوثان والنُّصُب وكل ما كانت تلك الطائفة قد جعلته اختصاصاً لها وامتيازاً وسبيلاً لجمع المال ، ولهذا

كانت مقاومة كتلة قريش للإسلام عنيفة وبغضهم له عظيماً ، لأنه دعا إلى هدم كل تلك النظم والقيم التى كانت كلها تدور حول الأغنياء والأقوياء وتخدم مصالحهم وتؤيد الوثنية لأنها مورد مال وكسب.

وعندما جاء الإسلام وجد نواة بناء قريش سليمة قوية ، فلا زال فى القرشيين من يؤمن بالمبادىء الأخلاقية ويتمسك بالبنيان المحكم السليم الذى وضعه قصى وعبدمناف وهاشم وعبد المطلب وحلفاؤهم ، ولهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه كخطوة أساسية من خطوات نشر الدعوة بأن ينذر عشيرته الأقربين ، وهنا لابد أن نذكر الآية وما قبلها وبعدها مباشرة حتى يتضح لنا معناها ومغزاها ، إذ إن تقطيع الآيات لا يعين قط على فهمها الفهم الكامل الصحيح : ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾ [الشعراء] .

فهنا نجد الدعوة موجهة إلى رسول الله بالاعتماد أولاً على عشيرته الأقربين ، لا لأنهم أقاربه بل لأنهم هم الذين ظلوا متمسكين بالقواعد الأخلاقية الأولى التى وضعها قصى وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب ومن أيدوهم ، لأن هؤلاء يكونون بهذا الوصف أقرب إلى فهم الإسلام والدخول فيه . والآيات تأمره فى نفس الوقت بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين فقد كان هؤلاء قلة ، ولكنهم كانوا قلة قوية بإيمانهم رغم أن الكثيرين من أفرادها كانوا فقراء لا حول لهم فى حياتهم.

وقبل أن ننتقل إلى دراسة موقف قريش من الإسلام لا بد أن نقول شيئاً عن الدور العظيم الذى قامت به أسواق الحجاز فى توكيد مركز قريش ، ويستتبع ذلك الكلام على دور قريش فى تطوير اللغة العربية ، وقد سبق أن قلنا بعض هذا الكلام فيما تقدم من فصول هذا الكتاب ، ولكن لا بد من ذكره الآن معدلاً بحسب ما يقتضيه تطور الأفكار فى هذا البحث .

* * *

كانت أسواق العرب كما ذكرنا آنفاً نظاماً محكماً تكامل مع الزمن ، وعمل على

ترتيبه التجار والقبائل معاً ، فكل قبيلة أو مجموعة من القبائل المتجاورة أو المتحالفة نظمت لنفسها سوقاً سنوية فى منازلها ، ولما كان التجار من أقدم العصور إلى يومنا هذا أكثر الطوائف تفاهماً فيما بينهم لضمان مصالحهم - دون أن يمنع ذلك روح المنافسة الطبيعية بينهم - فإنهم اجتهدوا فى إقناع القبائل بجعل موعد السوق مناسباً لهم ، لأنهم حريصون على أن يحضروا أكبر عدد ممكن منها ، إما بصفتهم الشخصية أو عن طريق زملائهم فى شتى النواحى ، وإذا كانت قريش فى مجموعها هى أعظم تجار مكة أو أعظم الهيئات المشتغلة بالتجارة ، فقد عرفت كيف تجعل آخر أسواق العام فى منطقتها حتى تربط بين التجارة والحج (فى ذى الحجة - ومن هنا جاء اسمه ، والاسم سابق على الإسلام) ، فقد حرصت على أن تكون أسواقها الثلاثة عكاظ وذو المجاز ومجنة أعظمَ هذه الأسواق وأحفلها بالبضائع والناس .

وقد اتجهت العناية بصورة خاصة إلى سوق عكاظ بسبب قربها من مكة ، فجعلتها قريش أكبر أسواق الجزيرة وأكثر الأسواق اجتذاباً للناس ، فلما وُفِّقت فى ذلك أصبحت عكاظ كذلك ملتقى العرب ، ولم تعد مجرد سوق تجار ، بل أصبحت مناسبة للتسلية واللهو والتفريج عن النفس ، وهذا هو الذى اجتذب الشعراء إليها ، وهذا يفسر لنا كيف أصبحت عكاظ سوقاً سنوية للأدب والشعر وقد نتجت عن ذلك نتيجة لم تقصد إليها قريش قطعاً ، ولكنها كانت نتيجة طبيعية لظروف أسواق قريش ولمكانة مكة الدينية والتجارية ثم لمهارة القرشيين فى الحصول لأنفسهم ولمدينتهم مكة على أعظم المكاسب والمغانم من كل شىء .

وقد تيسر ذلك لقريش لأنها عندما استقرت فى مكة وسيطرت عليها لم تفقد طبيعتها القبلية قط ، فقد ظلت فى حياتها وتنظيمها واتجاهات أفرادها قبيلة واحدة محفوظة الأنساب تحكمها قواعد الحياة القبلية وعاداتها وتقاليدها وأخلاقياتها ، وقد كان فريق من قريش وهم قريش البطاح أو الأبطحيون - يسكنون المدينة وينزلون الدُّور فى أحياء خصصت لهم عرفت بالرباع وعرفت امتداداتها خارج البلد بالشعاب ، وظل فريق آخر من القرشيين يعيش فى الخيام خارج البلد أو فى ظاهرها وهؤلاء هم قريش الظواهر، وظلت قريش تستوعب فى كيانها من تريد استلحاقه من

قبائل العرب الصغيرة التى رأت أن مصلحتها تقضى باستلحاقها ، فإما تصاهرت معها وأدخلتها فى كيانها أو اكتفت بالحلف معها ، وكان معظم المستلحقين من قضاعة وكنانة ، وكانت العادة أن تربط القبيلة المستلحقة نفسها بنسب قريش عن طريق فهر .

وهذا يفسر لنا : لماذا نجد وضع بطون مثل محارب بن فهر ولؤى بن غالب بن فهر غير واضحة العلاقة بقريش ، وهذه القبائل المستلحقة نجدها مفردة بدون تسلسل نسبى لأن قريشاً مثلها فى ذلك مثل غيرها من القبائل القوية كانت تمتص القبيلة المستلحقة فلا يبقى منها إلا اسمها ، ويقول النسابة فى هذا إن محارباً مثلاً انقرضت فلا عقب لها أو أن بنى عامر دخلوا فى لؤى ، وهكذا كانت قريش تزداد قوة عن طريق قريش الظواهر ، ومن قبائل قريش الظواهر كانت قريش تعوض ما يصيب أعدادها من نقص ، وأما القبائل المتحالفة التى أصبحت تبعاً لقريش فمثلها معظم خزاعة والكثير من بطون قضاعة وخاصة أسلم .

عن طريق هذا الباب المفتوح على القبيلة حافظت قريش - رغم استقرار معظم بيوتها - على خصائصها القبلية ، فكان أولاد القرشيين يدربون على القتال وركوب الخيل ، وكانوا يرسلون إلى البادية وهم صغار ليشبوا أقوياء أصحاء على طبيعة البدو وعن طريق هذا الباب المفتوح أيضاً ظلت أعين القرشيين مفتوحة على من حولها من القبائل ، فكان القرشيون يعرفون كل كبيرة وصغيرة عما يجرى فى خيام هذه القبائل ، وكان شيوخ القبائل معروفين للقرشيين ، يستقبلهم القرشيون ويصاهرونهم ، ومنهم من كان له بيت فى مكة إلى جانب خيامه فى الصحراء ، مثل بُدَيل بن ورقاء شيخ بنى كعب من خزاعة فقد كان له بيت كبير فى مكة ، وقد عُرف هؤلاء الرؤساء المقربون بلفظ الندماء أى الأصدقاء المقربين ، فيقال إن فلاناً كان نديماً لهاشم أو لعبد المطلب ، وقد عقد محمد بن حبيب النسابة فصلاً خاصاً فى كتابه المحبَّر عن الندماء ، ونظرة على أسماء الندماء وقبائلهم تؤكد للقارىء ما نقول .

وهكذا ظل أولئك القرشيون قبليين مدنيين فى نفس الوقت ، وبينما كان رؤساء قريش يحسبون الأموال والأرباح والربوات ويسجلون ذلك فى سجلات حفظوها ، وأتقن الكثيرون منهم القراءة والكتابة والحساب لهذا الغرض نجدهم لم يفقدوا قط

خصائص البدو ولا هم قطعوا علاقاتهم بهم ولا أهملوا أحلافهم مع القبائل ، فكان رجال الأعمال هؤلاء بدواً محاربين فى نفس الوقت وعندما ندقق فى أخبار السيرة النبوية وهى المناسبة الكبرى التى أتاحت لنا أكبر قدر من المعلومات عن قريش مكة ، والعرب عامة نجد أن كبار السن من القرشيين من أمثال الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبى أحيحة بن العاص كانوا يمسكون بزمام القبيلة ويكتفون بالإشراف من بيوتهم أو مواضع راحتهم فى بيوتهم التى اشتروها فى الطائف تاركين الجيل التالى لهم يُصرِّف الأعمال .

وعندما ظهر رسول الله ودعا بدعوته كان أنداده فى السن من أبناء زعماء القرشيين هم الذين تصدوا له أول الأمر من أمثال : أبى جهل ، وأبى سفيان ، وعقبة بن أبى معيط ، وأمية بن خلف ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس بن عدى ، والنضر بن الحارث بن كلدة ومن إليهم ، أما كبار القوم فلم يتدخلوا إلا فيما بعد عندما بلغ الصدام بين محمد ﷺ وأولئك المعاندين من نظرائه فى السن أو أبناء جيله مبلغاً أصبح يهدد بالفتنة . هنا يتدخل الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبو أحيحة العاص بن سعيد بن العاص والعاص بن هاشم وعبد الله بن جدعان ومن فى طبقتهم من سادات قريش الذين كانوا إذ ذاك فى مصطافهم فى الطائف فأسرعوا ليتداركوا الموقف ، وقد تصرفوا بذكاء .

وأكثر ما يستوقف النظر فى قريش هى روح الجماعة Ésprit de corps التى كانت تتصرف بها ، فهم كتلة واحدة أمام أى عدو وأمام أى خطر ، وقد أشرت فيما سبق إلى أن أكثر ما أخافَ قريشاً من دعوة رسول الله هو أنها فرَّقت جماعتهم ، ويتجلى لنا إحساس كبار القرشيين بوحدة قريش وحرصهم على صالحها فى خبر عتبة بن ربيعة عندما ذهب يفاوض رسول الله ليفهم منه ما يريد ، وكان بصفته تاجراً قد ذهب يساوم محمداً ظناً منه أنه مستعد للمساومة ، فلما سمع القرآن وجده كلاماً جديداً جداً عليه ، وأحس بأنه كلام له عمق ومعنى وأثر فى النفوس ، فلما سألوه ما وراءه « قال : ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين

ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن ظهر على العرب فمُلْكه مُلْككم وعِزُّه عِزُّكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه...» .

فهذه عبارة إن صدقت فإنها تدل على حرص قريش على وحدتها وتماسكها لخدمة مصالحها ، فهذا الرجل لا ينصح القرشيين بقبول دعوة محمد ﷺ ، ولكنه يقول لهم إنه يتوقع لهذه الدعوة النجاح ، ويقول إنه من صالح قريش أن تخلى بين محمد وما يدعو إليه ، فإذا غلبته العرب لم يصب قريشاً ضرر ، وإذا انتصر محمد سارعت قريش إلى المشاركة فى الثمرات بل جنتها كلها ، وهذه العبارة تبدو لى وكأنها تصوير لما فعلته قريش مع الإسلام فى الواقع ، فقد خَلَّتْ بين محمد والعرب ، فلما انتصر عرف رجالها كيف يفوزون بمعظم ثمرات النصر .

الوليد بن المغيرة هنا يمثل العقلية القرشية أصدق تمثيل ، فهى عقلية واقعية ، فهذا الرجل أعجب بالقرآن دون أن يفكر فى الدخول فى الإسلام ، لأن الإسلام بدا له مغامرة وهو لا يشك فى أن القرآن الذى سمعه من محمد سيكون له أثر بعيد ، لكنه - أى الوليد بن المغيرة - غير واثق من أن الدعوة ستنجح ، ولهذا فقد آثر الوقوف بعيداً ونصح قومه بعدم التعرض لمحمد فلعلَّ دعوته تنجح وتجلب على قريش خيراً كثيراً .

ذلك أن قريشاً كانت عند أولئك القرشيين أهم من أى شىء آخر ، فقد عاشوا فى مكة ولكنهم ظلوا قرشيين قبليين فى تفكيرهم وأسلوبهم فى العمل، وإذا كنا لا نستطيع القول بأن قريشاً بعد سيطرتها على مكة لم تعد قبيلة بدوية خالصة مثل غطفان وهوازن ، فكذلك مكة فى أيدى القرشيين لم تكن مدينة بمعنى الكلمة ، فقد كان القرشيون يعرفون المدن وما تتميز به من منشآت وعمائر وقصور ، فقد كانوا يزورون مدن العالم القريبة منهم من طيشفون - وهى المدائن - إلى الإسكندرية ، ولكنهم لم ينشئوا فى بلدهم مبنى فخماً ولا اتخذ واحد منهم قصراً ، وإنما ظل شيخاً بدوياً يعيش فى مدينة ، وقد كانت هذه هى الصفة التى غلبت القرشيين حتى بعد الإسلام ، فقد أصبح معاوية مثلاً خليفة ولكنه لم ينشىء قصراً عظيماً ولا اقتنى رياشاً

رفيعاً أو اتخذ مطبخاً ملوكيًا ، بل ظل يعيش بدوياً ، لا يزيد طعامه على طعام قريش فى الجاهلية : الثرائد والعصائد .

بهذا المزاج من القبلية والمدنية نجح القرشيون ، فهم من قبائل الجزيرة شيوخ بدو يعيشون عيشة شيوخ بدو يتخلقون بأخلاقهم ويتعاملون بقواعد التعامل السائدة فى الجزيرة ، فإذا دخلوا بلاد الروم أو الفرس عرفوا كيف يجالسون الرؤساء والكبراء من القادة والإداريين والحكام ويكسبون احترامهم ، وفيما يتعلق بفارس كان العرب يعرفون كسرى وله من بين رؤسائهم أصدقاء - وبدويتهم تلك هى التى حمتهم من الخضوع لفارس أو لدولة الروم وقد حكينا ما حدث لعثمان بن الحويرث عندما أراد أن يسود قريشاً باسم القيصر ، أما إباء العرب للخضوع للفرس فيصوره يوم ذى قار، ولم يكن لقريش نصيب فى يوم ذى قار ولكن القرشيين بنشاطهم التجارى الواسع وبما كان فى أيديهم من عهود القبائل التى تضمن لهم سلامة المرور وما حازوه من الإيلاف الذى فتح لهم أبواب بلاد الفرس والروم والحبشة قد عاونوا معاونة فعالة فى تقريب أفكار العرب بعضهم من بعض وتقريب لهجات العرب والوصول فى النهاية إلى اللسان العربى المبين ... الذى يفهمه العرب كافة ، وبه نزل القرآن .

ذلك أن أسواق قريش كانت أعظم أسواق العرب ، وعكاظ كانت ذروة لقاءاتهم وإلى جانب البضائع والتجارات كان يخف إليها الشعراء ليلقوا قصائدهم ، وبطبيعة الحال كانت هذه عملية طويلة وإن كنا نحن لا نعرف إلا نهايتها فقبيل الإسلام كان أعاظم شعراء العرب يَخِفُّون إلى عكاظ بقصائدهم ينشدونها أمام حكام أو نقاد ليزنوها وليختاروا أحسنها ، وهذا يقتضى أن أولئك الشعراء كانوا يقولون قصائدهم بلغة عربية واحدة حتى يمكن الموازنة بينها ، وهذه هى الصورة الأخيرة التى أشرنا إليها ، ولكن لا بد أنه قد سبقت هذه الصورة تمهيدات طويلة ، ذلك أن لهجة قريش ، وهى سيدة السوق وسادنة الكعبة كان لا بد أن تكون هى اللغة المشتركة بين الوافدين على السوق ، وإذا أمكن القول بأن لغة الأسواق سهلة لا تخرج عن عبارات البيع والشراء والتعامل اليومى .

وتلك هى البداية أى أن قبائل العرب الوافدين إلى عكاظ ثم على مكة كانت

تتفاهم بينها بلغة مشتركة ، أى ما يسمى فى اليونانية بالكوينى koiné أو هى اللغة المشتركة التى كان اليونان يتفاهمون بها أول الأمر إذا تلاقوا عند نصب دلف أو فى ميادين الألعاب فى سهل أوليمبيا ، وهذه اللغة المشتركة التى يفهمها اليونان جميعاً سواء فى ذلك الأثينيون والإسبرطيون والميجاريون كانت لغة أثينا ، وشيئاً فشيئاً أصبحت لغة أثينا هى اللغة اليونانية .

مثل ذلك حدث بالنسبة للهجة قريش ، فقد فرضت قريش لهجتها العربية على السوق وزواره ، ثم تطورت هذه الكوينى التجارية السوقية حتى أصبحت لغة تعبير أدبى كان لابد أن ينشىء الشعراء فيها شعرهم لكى يفهمه النقاد والناس وينقدوه ، وتنشر هذه القصائد بين العرب ويحملها العائدون من الأسواق إلى منازل قبائلهم ، وعاماً بعد عام تعوَّد الناس فى نواحى الجزيرة كلها سماع هذه اللغة وفهمها ، وأصبحت لغة الشعر بعد لغة الأسواق - لغة المثقفين وأهل الشعر ، وشيئاً فشيئاً نشأت بين العرب لغة عربية مشتركة واحدة مفهومة مبينة لهم جميعاً ، وذلك هو اللسان العربى المبين الذى نزل به القرآن ووصل به إلى ذروته بلاغة وسهولة وضبطاً .

وذلك فضل كبير لقريش ، وهو كان أول سبب من أسباب قوتها حتى أصبح من أكبر عناصر قوة العرب . فقد قربت اللغة المشتركة بين أفهامهم وأذواقهم ، وإذا كانت تميم مثلاً تتحدث لهجتها فى منازلها فإن شعراء تميم ما كانوا لينظموا إلا فى لهجة قريش ، والتميميون أنفسهم ما كانوا يتفاهمون مع غيرهم من قبائل العرب إلا بلغة قريش ، تلك الفصحى المبينة . ويكفى أن نلفت النظر هنا إلى مراثى الخنساء بنت عمرو بن الشريد فى أخويها ، فقد كانت المراثى تُلْقى بلغة قريش فى عكاظ ، ومن هنا تنتقل إلى نواحى الجزيرة العربية حيث يتناشدها الناس ويفهمها منهم من يستطيع هذا الفهم ويحاوله من لا يستطيعه ، وفى النهاية أصبح العرب جميعاً يفهمون لهجة واحدة من العربية وإن تكلموا بلهجات شتى ، ثم جاء القرآن الكريم ونزل بلغة قريش فأصبحت لغة العرب جميعاً .

* * *

وكان لقريش كذلك فضل عظيم فى إنشاء الكتابة العربية ، لقد كان القرشيون

بطبيعة معاملاتهم المالية والتجارية من أحوج الناس إلى الكتابة وأصل الكتابة العربية نبطى ، أى أن قريشاً - أو غيرها من القبائل العربية التى احتاجت إلى كتابة شىء - كتبت ما تريد كتابته بحروف نبطية وبالفعل لدينا نقش كتابة يعرف بنقش وادى المكتب فى سيناء وتاريخه سنة ٢١٠ ميلادية ، وفى هذا النص نقرأ ألفاظاً عربية صريحة والنص كله مكتوب بحروف نبطية قريبة بعض الشىء من حروف اللغة العربية ، وبعد ذلك اكتشف الباحثون نصاً آخر فى وادى تيران فى برية سيناء أيضاً ، ثم اكتشف نقش النمارة فى إقليم حوران ، وتاريخه سنة ٣٢٨ ميلادية ومعظمه ألفاظ عربية مكتوبة بحروف نبطية معدلة وقريبة من حروف لغتنا العربية ، ثم نجد بعد ذلك نقشاً عظيم الأهمية فى قرية زَبَد قرب قنسرين إلى جنوبى حلب ، وتاريخه سنة ٥١١ ميلادية وحروفه عربية وقريبة من الخط الكوفى بالفعل ، ثم يجىء النقش المعروف بنقش القاهرة لأنه محفوظ فى متحف الفن الإسلامى فيها وتاريخه سنة ٦٥٥ ميلادية وهو أول نص عربى متميز بشخصيته وجدناه ، وأخيراً تجىء نقوش جبل سلع فى المدينة وهى مكتوبة بحروف عربية كوفية واضحة قد كشفها محمد حميد الله ، وهكذا نرى أن الكتابة العربية التى نبعت فى الأصل من النبطية تطورت شيئاً فشيئاً حتى وقفت على بداية الكتابة العربية فى الحجاز .

ولا شك فى أن الجاحظ أخطأ حين قال إن الذين كانوا يعرفون الكتابة من العرب قبل الإسلام لم يزد عددهم على عشرة أو عشرين ، وكذلك لم يوفق ابن عبد ربه عندما قال فى « العِقْد » : إن العرب كانوا فى الجاهلية يستعملون الحصا فى العد ، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، فكانوا يحسبون الأعداد بالحصا أى قطع الحجر الصغيرة ، فهذا كلام يقال فى مجال تفسير لفظ « الأميين » الوارد فى القرآن بمعنى من لا يكتبون ولا يقرأون فحسب ، واللفظ يحمل هذا المعنى ، ولكن له معانٍ أخرى . والعرب الذين كانوا يقومون بعمليات تجارية تقدر بآلاف الدنانير لا يمكن أن يكون قصارى معرفتهم بالحساب هو استعمال الحصا كما يعد البعض الأرقام على أصابعه ، والحقيقة أنه كان فى العرب كثيرون يقرأون ويكتبون ويحسبون .

والحق أن معانى كلمة « أمى وأميون » فى حاجة إلى مزيد من البحث ، وإلا فكيف

نفسر قول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة] ، فمن الواضح هنا أن تفسير الأميين بأنهم هم الذين لا يقرأون ولا يكتبون لا يعين كثيراً على تفسير هاتين الآيتين تفسيراً تطمئن إليه النفس ، ولا يكون المراد بلفظ « أمى» من لا يقرأ ولا يكتب فحسب إلا فيما يتصل برسول الله ﷺ.

فإذا كانت بين العرب قبيل الإسلام جماعة تحتاج فعلاً إلى القراءة والكتابة فهى قريش بسبب اتساع أعمالها التجارية وعلاقاتها ونشاطها المتعدد النواحى الذى ذكرناه ، وحتى فيما يتعلق بالناحية الأدبية ، فإن لفظ المعلقات مهما كان تفسيره ومعناه ، فهو يدل على أنه كانت هناك قصائد تكتب وتعلق ولن ندخل هنا فى الإجابة على أسئلة مثل : تكتب على ماذا ؟ وتعلق أين ؟ لأن المهم عندنا الآن أن هناك شعراً كان يكتب ويعلق ، وما دام يكتب ويعلق فلا بد أنه كان هناك من يكتبه ومن يقرأه ، ولا بد أن القراء كانوا كثيرين ، وإلا فلماذا تعلق ؟ وكيف يقول الجاحظ مع هذا إن عدد من يقرأ ويكتب من العرب قبل الإسلام لا يزيد على عشرة أو عشرين ، وكيف يستقيم هذا وأول آيات أوحيت لرسول الله ﷺ لتكون فتحاً لباب الدعوة للدين الجديد واستلفاتاً لأسماع الناس تقول :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق] .

كانت قريش إذن قبيلة فريدة فى بابها بين القبائل التى نعرفها فى التاريخ ، فهى جماعة قبلية مدنية فى آن معاً ، وهى جماعة سياسية متماسكة نشيطة متفتحة الذهن واعية لنفسها مدركة لما تريد وما لا تريد ، وهى - اجتماعياً وسياسياً -مكونة تكويناً قوياً متيناً ، ورجالها يعرف بعضهم بعضاً بقدرته ومكانته وخصاله وهى منظمة تنظيماً اجتماعياً وسياسياً واضح السمات والخطوط ، وهى قبيلة غنية تولى أمرها قبيل الإسلام رجال أعمال ذوو إدراك وفهم وإحساس واضح بمصالحهم وتمسك شديد بها ، وهى واسعة الاتصال بالدنيا من حولها ، سواء فى جزيرة العرب أم خارجها ،

ورؤساؤها يعرفون كيف يسوسون أمورهم ، وأفرادها محترمون لهم أقدار محفوظة ، يشترك فى هذا صغيرهم وكبيرهم وهم ماديون أنانيون يغلب عليهم حب المال ، وهم فى معاملاتهم المالية لا يعرفون رحمة ولا إنسانية ، وهذا هو جانب الضعف الأكبر الذى جعل المجتمع المكى يتدهور تدهوراً خطيراً قبيل انبلاج نور الإسلام وهو أيضاً جانب من جوانب القوة والتماسك ، ولا يعرف التاريخ قبيلة ذات ثروة ومال ومعاملات وحسابات إلا قريش .

قُريش وَدَورهَا فى النهُوض :

هذا ما كان من أمر أسواق الحجاز ودورها فى تطوير اللغة العربية ، فما الذى حدث لقريش عندما جاء الإسلام ؟

الذى حدث أن عوامل قوة قريش نفعت القرشيين كأفراد ولكنها لم تنفعهم كقبيلة لقد نجح القرشيون كأفراد فى قيادة الجماعة الوثنية ، ولكن الصدام بين قريش والإسلام حطم عناد قريش ولكنه لم يحطم قوتها القبلية ولا اعتزاز أهلها بأنفسهم ومن أكبر أسباب تحطمها صلابة ومتانة تكوينها ، فلكى ينتصر الإسلام كان لا بد من تحطيم عصبية قريش مع الإبقاء على شخصية القبيلة أو عزة أفرادها . وليس من الصحيح أن محمداً ﷺ قصد إلى تحطيم قريش بل العكس هو الصحيح ، فقد اجتهد فى الحفاظ عليها ، وقد كان يتمنى لو دخلت الإسلام كتلة واحدة ، ولكن القبيلة كانت صلبة التكوين جداً ، وفى تصادمها مع الإسلام تحطمت وانتثرت بيوتاً وأفراداً.

وقبل أن نختم الكلام على الفترة الأولى من الفترة المكية وندخل فى الكلام على الثانية لا بد من وقفة عند دار الأرقم التى انتهت بها تلك الفترة الأولى لنرى أثرها فى تطور الجماعة الإسلامية وعلاقتها بكفار قريش .

فَترة دَار الأرقَم :

نَدُرَ من بين مؤرخينا الأوائل من تنبه إلى أهمية الفترة التى قضاها رسول الله ﷺ فى دار الأرقم مع عظيم أهميتها فى تكوين الجماعة الإسلامية الأولى فى مكة . وهذه النواة ظلت على طول القرن الهجرى الأول عماد الدعوة وقيادتها الدينية . والسبب هو أن

أصحاب السير يكتبون السيرة على أساس ما كان من نصر الإسلام الحاسم عندما انتقلت الجماعة الإسلامية إلى المدينة واتخذتها قاعدة لأمة الإسلام ومجتمعها ونظامها ونشاطها وجهادها ، وتندفع صاعدة فى معارج القوة والنصر ، ولهذا تصغر فى نظرهم تفاصيل جهاد الرسول الأولى وما أبدى من ذكاء وحسن تصرف حتى ينشىء النواة الأولى من المؤمنين .

وأسباب تفكير رسول الله ﷺ فى دخول دار الأرقم ترجع إلى أن الدعوة الإسلامية لقيت لأول علم الناس بها نجاحاً عظيماً إذا عرفنا أن الداعين إلى الإسلام لم يزيدوا على أفراد قلائل من المؤمنين أكبرهم أبو بكر الصديق الذى وهبه الله إيماناً عميقاً شاملاً برسول الله ورسالته ، وكان الرجل إذ ذاك فى الأربعين من عمره أو دوينها ، وكان نشيطاً ذكياً واسع العلاقات بقريش محبوباً من جماعتها ، وكان مثله فى ذلك مثل رسول الله ﷺ تاجراً أميناً مأموناً يحبه الناس ويثقون فى سلامة نفسه وسريرته .

هذا إلى أن رسول الله ﷺ كان موضع محبة وثقة واحترام من أهل مكة كلها ، وعلى أساس من هذه الثقة فيه وأسلوبه الرقيق فى الدعوة دخل فى الدعوة رجال من جلة القوم من أمثال أبى سلمة بن عبد الأسد (مخزوم) وأبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح (الحارث بن فهر) وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن عمرو بن زيد بن نفيل (عدى بن كعب بن لؤى) ومن فى طبقتهم .

وخلال السنة الأولى للبعثة اجتمع حول رسول الله ﷺ من المؤمنين ما لا يقل عن خمسين أو ستين رجلاً وامرأة من أهل مكة ، وكانوا يلقون رسول الله عند المسجد أو فى بيته أو خارج مكة ، ولدينا أخبار تدل على أن رسول الله كان يلقى بعض أصحابه أحياناً عند غار حراء ، فقد كان يلم به أحياناً أثناء تجواله خارج مكة حيث يشعر أنه بعيد عن أعين الكارهين لدعوته . وهنا ينفرد أبو الفتح محمد بن سيد الناس فى «عيون الأثر » بتفصيل عظيم القيمة فيما يتعلق بإسلام عبد الله بن مسعود المعروف بابن أم عبد . وخبر إسلام هذا الرجل - وكان شاباً راعى غنم لأم عبد عندما دخل الإسلام - وارد عند قدماء رواتنا ، ولكن ابن سيد الناس يقول - راوياً عن عبد الله بن مسعود

- « فبينا نحن عنده على حراء إذ نزلت عليه سورة المرسلات . فأخذتها وإنها لرطبة بفيه ، أو إن فَاهُ لرطب بها ، فلا أدرى بأى الآيتين ختم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴾أو ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الآيتان ٤٨و ٥٠ من سورة المرسلات وهى السابعة والسبعون) ... ثم يقول ابن مسعود : فبينا نحن نيام على حراء أو على الجبل ، فما نبهنا إلا صوت النبى ﷺ (يقول) : منعها منكم الذى منعكم منها ! قلت : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : حية خرجت من ناحية الجبل[1]وهذه صورة أخاذة تعطينا مثالاً من حياة الجماعة الإسلامية الأولى خلال فترة ميلاد الأمة الإسلامية قبل دخول دار الأرقم .

وشاب مثل عبد الله بن مسعود دخل الدعوة وهو خارج مكة ، وكان يرعى الغنم لسيدة مكية . ولو كان بداخلها لما استمتع بتلك الحرية التى نراه عليها بعد أن آمن ، ومثله فى ذلك مثل الكثيرين من الضعفاء الذين دخلوا الدعوة خفية عن سادتهم أو أقاربهم من كبار المكيين ، ومع أن هؤلاء المكيين لم يكونوا قد اتخذوا بعد موقف العداء من الدعوة إلا أنهم - بداهة - لم يكونوا ليرضون أن يدخل أتباعهم أو أولادهم فى تلك الدعوة الناشئة .

ومحمد ﷺ كان رجلاً مفكراً واسع الذكاء ، ولم يكن يرضيه أن تسير الدعوة على هذا النحو ، فهو يريد لأصحابه أن يكونوا أحراراً من الخوف أو الحرج سواء فى دخولهم الإسلام أم اجتماعهم برسولهم ، خاصة وأن المكيين كانوا يتجمعون معظم الوقت فى فناء الكعبة يتسامرون ويتحادثون ويضايقهم أن يروا محمداً ﷺ جالساً ناحية ومن حوله أصحابه ، وهو يقرأ عليهم القرآن ويملى آياته عليهم ويشرحها لهم ، وكانت الصلاة إذ ذاك صلاتين : صلاة الفجر (دلوك الشمس) وغروبها (غسق الليل) ، فإذا جاء وقت صلاة المغرب اصطف المؤمنون حول رسول الله ، فصلى وكان هذا أثقل شىء على نفوس المكيين . فكانوا أحياناً يتفوهون بما لا يليق ، وأحياناً يحاول بعض سفهائهم تقليد الرسول فى كلامه تقليداً مشوهاً .

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ، طبعة القدسى بالقاهرة منقولة كما هى بالتصوير ومنسوبة إلى ما يسمى بدار الجيل فى بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٤ جـ١ ص ٩٨.

وقد بيَّنا فى الفقرة السابقة أن تصدى القرشيين للمسلمين بالأذى وإنكارهم على رسول الله ما كان يقول لم يبدأ إلا عندما ذكر آباءهم وسفَّه أحلامهم ، بل المعارضة بدأت قبل ذلك ، فإن الجماعة المكية كانت بدناً اجتماعياً وفنياً جاهلياً متماسكاً ، وهذه الجماعة الجديدة التى التفت حول رسول الله كانت جسداً غريباً يريد أن يعيش داخل البدن القرشى المكى ، فكان لا بد أن يواجه ظاهرة الطرد الاجتماعى Social rejec-tion وهى عملية متبادلة .

إن الجسد الكبير يتحرك من تلقاء نفسه للتخلص من الجسم الغريب ، وفى نفس الوقت يحاول الجسم الدخيل أن يتخلص من الجسد الكبير ، ونحن إذا زرعنا كلية خارجية بدل كلية تالفة فى جسم ، فإن الجسم يبدأ فى الحال فى طرد الكلية الجديدة - وفيها نجاته - وفى نفس الوقت تبدأ الكلية المزروعة فى طرد الجسم الكبير نفسه ، وهذا يفسر لنا بعض أسباب نفور المكيين من الجماعة الإسلامية الأولى وتفكير رسول الله ﷺ فى تأمين جماعته من عوامل الطرد المتبادل هذه .

وعندما أسلم الأرقم بن أبى الأرقم واسمه عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم بدأت فكرة اختيار مكان مقفل آمن يكون مركزاً للدعوة ومأمناً للداخلين فيها ، فيها يجتمعون بنبيهم ويقرأون القرآن دون حرج . ولم يكن الأرقم بن أبى الأرقم موسراً ، ولكنه كان يعيش مع أبيه الأرقم فى بيت كبير على الطريق بين الصفا والمروة ، ولم يكن فى البيت إلا الأرقم وأبوه ، وأبوه هذا شيخ ضرير ، والأرقم الابن متحمس للدعوة يريد أن يقدم لها شيئاً ، ولا ندرى كيف تم الاتفاق بينه وبين رسول الله على أن تكون داره الموضع المختار للجماعة .

وعلى أى حال فقد دخل رسول الله دار الأرقم فى أواخر السنة الثانية للبعثة ، وهناك وجد الرسول وصحابته حريتهم التى يتوقون إليها. ومن الواضح - عن تفاصيل إسلام عمر بن الخطاب أن رسول الله كان يقضى هناك معظم ساعات النهار ، فقد تكاثر المقبلون على الدعوة بعد أن وجدت مأمنها ، وأصبحت الجماعة تستريح إلى التجمع فى تلك الدار حيث يلقون رسولهم ويسمعون منه القرآن

أو يكتبون آياته ويستمعون إلى تفسير الرسول لها فى جلسات حرة آمنة فى دار واسعة شبه خالية من السكان .

هنا دخلت الإسلام جماعات بعد جماعات . وتحدثنا النصوص عمن أسلموا بعد «دخول الرسول دار الأرقم ودعائه بها » بحسب تعبير ابن سعد الذى يتردد فى سِيَر الكثيرين من أوائل المسلمين . وهنا فى هذه الدار أتى أبو بكر الرسول بنفر من أعاظم أفراد الجماعة فيهم سعد بن أبى وقاص وعثمان بن مظعون وخباب بن الأرت بن جندلة وأصله من بلاد ما وراء النهر وهو إذ ذاك مولى لبنى زيد مناة بن تميم الخزاعيين. وعمير بن أبى وقاص أخو سعد وعياش بن أبى ربيعة (مخزوم) والزبير ابن العوام بن خويلد (عبد العزى بن قصى) وعبد الرحمن بن عوف (زهرة بن كلاب) وغيرهم من قدماء المسلمين أعمدة الإسلام الأولى .

فى هذه الدار نمت الجماعة الإسلامية الأولى نمواً عظيماً ، وقارب عددها الثلاثمائة ، ومع نمو حجمها ازداد شعور أفرادها بالقوة والعزة وزادت جرأتها على المشركين ، فكان لابد أن يتزايد رد فعل المكيين ، فبدأوا فى اضطهاد من قدروا على اضطهاده من المسلمين ، وساورتهم الشكوك فى أمر هذه الجماعة ، فبدأوا يحومون حولها ليتعرفوا أخبارها .

وعندما نقرأ فى خبر إسلام حمزة بن عبد المطلب أن « أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ وجارية لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ... » إلى آخر الخبر . ينبغى أن نفهم من ذلك أن أبا جهل كان يترصد محمداً ﷺ على الطريق إلى دار الأرقم وقلبه يغلى بالكراهة والحقد ، وحفزه حقداً على أن يمضى يتجسس أخبار الجماعة ، فلما بصر بمحمد انفجر مرجل حقده وخرج عن طوره فقال ما قال . ثم مضى أبو جهل إلى مجلس قريش عند الكعبة وملك رسول الله زمام نفسه فلم يرد على أبى جهل بكلمة ومضى إلى دار الأرقم فى الغالب .

وبلغ الخبر حمزة على ما نعرف فأخذته الحمية لابن أخيه ، فمضى إلى حيث كان أبو

جهل فى مجلس قريش فضربه بالقوس على رأسه فشجَّه ، وقال : « أتشتمه ! فأنا على دينه أقول ما يقول فردّ ذلك إن استطعت » وتدخل بينهما نفر من القرشيين واعترف أبو جهل أنه تعدى على رسول الله وسَبَّه سباً قبيحاً ، ومضى حمزة إلى دار الأرقم فتم إسلامه .

كان هذا فى نهاية العام الأول لدار الأرقم ، الثالث للبعثة ، وشعر المسلمون بعد انضمام حمزة إليهم أنهم يستطيعون الآن مغادرة دار الأرقم والتجمع عند الكعبة دون حرج ، وكان صاحب الفكرة هو أبو جهل ، فخرج المسلمون فى شبه مظاهرة إسلامية وانتهوا إلى مجلس قريش فكبَّروا وهللوا وأخذوا ينشدون القرآن ، فثارت ثورة المكيين فنهضوا للرد على تلك الجماعة ، ووقع شجار عنيف وأحاط المسلمون برسول الله ﷺ وأخذوه إلى داره ، أما أبو بكر فقد احتمل الصدمة وبرك عليه نفر من المشركين وضربوه ضرباً شديداً حتى فقد الوعى ، وأسرعت أم جميل فاطمة زوج سعيد بن زيد بن نفيل تداويه حتى عاد إلى نفسه ، فكان أول ما سأل : كيف حال رسول الله ﷺ فطمأنته بأنه بخير ، فلم يكد يستطيع المشى حتى مضى إلى رسول الله ﷺ فى داره .

وهكذا فشلت المحاولة الأولى للخروج من دار الأرقم ، وعاد المسلمون إلى ما كانوا عليه من الاجتماع فى دار الأرقم حول رسول الله ، ووجد رسول الله أن ينصح المستضعفين من أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة فبدأت الهجرة إلى هناك ، وكانت على دفعتين كبيرتين ، ولكن تيار الهجرة كان مستمراً من ذلك الحين حتى هجرة الرسول إلى المدينة .

واستمر الرسول وأصحابه يجتمعون فى دار الأرقم بعد نحو سنتين ، وكان الشيخ أبو الأرقم قد ضاق ذرعاً بجماعة المسلمين التى كانت تملأ داره ، وكان هو مشركاً لا يطيق سماع القرآن أو أحاديث المسلمين .

وفى حديث إسلام عمر بن الخطاب فى آخر السنة الخامسة للهجرة - بخلاف ما يقوله بعض الرواة من أنه أسلم فى السنة الثالثة للهجرة - معلومات طيبة عن دار الأرقم وحياة المسلمين فيها ، فإنه لما بلغه إسلام أخته فاطمة وهى زوجة سعيد بن زيد بن نفيل اتجه إلى بيتها فوجدها هناك تقرأ القرآن فشتمها وضربها حتى جرحها

وسال دمها فطفقت تبكى ، فرقَّ لأخته ، وطلب منها أن تناوله الصحيفة التى كانت تقرأ فيها مع خباب بن الأرت ، فطلبت إليه أن يغتسل ففعل ووعدها بألا يمسها بسوء فلما جلس يطالع ما فيها وهدأت نفسه أخذ القرآن بمجامع نفسه ، وكانت الآيات التى قرأها على بعض الآراء ، أول سورة طه ، وسورة الحشر على بعض الآراء الأخرى .

وهنا تحرك قلب عمر ومالت نفسه للإسلام وخاصة عندما قالت له أخته فاطمة أن رسول الله ﷺ كان يدعو بأن يُعز الإسلام بأحد العمرين : أبى الحكم عمرو بن هشام (أبى جهل) وعمر بن الخطاب ، فسأل أين يكون محمد ليذهب إليه ويسلم ، قالت : هو فى بيت فى أسفل الصفا - تريد دار الأرقم - ووصفوه له فاتجه إليه ودقَّ الباب ، ونظو بعض المجتمعين هناك وقالوا لرسول الله إنه عمر بن الخطاب ، ولم يكن رسول الله قد عرف أنه جاء ليسلم ، فأمر أصحابه أن يفتحوا له ، فدخل ، وكان فى الدار (على قول ابن إسحاق ، ابن هشام ١/ ٣٦٨) ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ممن أقام مع رسول الله بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فقال حمزة بن عبد المطلب ، فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ ائذن له ، فأذن له الرجل ، وقام إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فو الله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعة ، قال عمر : يا رسول الله ، جئت لأومن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله فكبَّر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم وقد عَزُّوا فى أنفسهم بإسلام عمر .

وفى رواية ابن كثير أن عمر عندما أسلم بعد حمزة كلم رسول الله فى الخروج من دار الأرقم ، فلم يعد الاجتماع فيها ضرورة ، وقد عزت الآن وقويت ، ثم إن الشيخ أبا الأرقم أساء إلى المسلمين مرة وغُصَّ بهم وطلب إليهم أن يخرجوا من بيته ولعن ابنه ، فخرج المسلمون جملة واحدة يتقدمهم رسول الله وأبو بكر وعمر واتجهوا إلى

الكعبة وأخذوا مكانهم عندها فلم يجرؤ المشركون على التعرض لهم ، وقد كثروا وعزوا ولم يعودوا يخشون المشركين . وهنا تنتهى فترة دار الأرقم التى كانت ذات أثر حاسم فى تأسيس نواة أمة الإسلام فى المدينة . وبعد خروج المسلمين من دار الأرقم بدأت الفترة الثانية فى الحقبة المكية التى ستستمر حتى وفاة خديجة رضى الله عنها وأبى طالب ثم الخروج إلى الطائف . وبعودة الرسول ﷺ إلى مكة تبدأ الفترة المكية الثالثة من سنة ١٠ إلى سنة ١٣ هـ .

الفترة المكّيّة الثانيّة :

الصراع بين الإسلام وقريش حتى موت السيدة خديجة أم المؤمنين وأبى طالب :

لدينا فيما يتصل بتطور العلاقات بين قريش والإسلام بضعة أخبار أو فقرات على أعظم جانب من الأهمية توضح لنا تطور موقف قريش ، لأن مواجهة قريش للإسلام لم تأخذ من أول الأمر شكلاً واحداً جامداً ، بل تغير هذا الموقف وتطور تطوراً منطقياً تمشى مع اتساع نطاق الدعوة أفقياً ورأسياً . أى : اتساع مداها من حيث الانتشار وامتداد عمقها من حيث تكامل جوانبها .

والخبر الأول يرويه ابن سعد فى طبقاته عن الزهرى يقول : « دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سراً وجهراً ، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكانوا إذا مر عليهم فى مجالسهم يشيرون إليه : أن غلام بنى عبد المطلب لَيُكلَّم من السماء ، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التى يعبدونها دونه ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فعند ذلك عادوا رسول الله ﷺ وناكروه وأجمعوا خلافه »[1].

ومعنى ذلك أن القرشيين لم ينكروا دعوة رسول الله أول ما علموا بأمرها ، فكانت فى نظرهم شيئاً غريباً ، فهذا رجل يقول إن السماء تكلمه وهو أمر غير مفهوم عندهم ولا هو يهمهم ، فتركوه يدعو . ولم يحفلوا لانضمام بعضهم إليه ، واستمر عدم

---

(١) الطبقات لابن سعد : ١/ ١٣٣ . النويرى ١٦/ ١٩٦ .

الاكتراث هذا حتى نزلت الآيات التى تنقد أخلاقهم ومسالكهم فى الحياة وتعيب آلهتهم وتمس آباءهم فأنكروا عليه وبدأوا يتحركون لمعارضته .

والخبر الثانى يرويه ابن إسحاق ، وهو يقول : « فلما نادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه - فيما بلغنى - حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون » .

« وحدب على رسول الله عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله ، مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء ، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعْتِبُهُمْ من شيء أنكروا عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر»[1] .

وهذا الخبر نستنتج منه النتائج التالية المتعلقة بموقف قريش من الإسلام :

١ - أن قريشاً لم تنفر من دعوة الإسلام طالما كانت دعوة دينية خالصة لا تمس مصالح القرشيين ، فقد كان القرشيون لا يعنيهم من أمر الدين عامة إلا ما مس مصالحهم، والدين عندهم كان مصلحة وجزءاً من أعمالهم الكثيرة التى تدر عليهم المال وتقوى مركزهم السياسى فى جزيرة العرب ، فهم لم يكن يعنيهم أن يكون الإنسان على مذهبهم فى الوثنية أو كان نصرانياً أو يهودياً ما دام ذلك لا يضر بمصالحهم المادية الملموسة المباشرة .

٢ - ولكن محمداً ﷺ عندما ذكر آلهتهم وعابها ، وعندما نزلت آيات القرآن تبين فساد رأى القرشيين وسوء رأيهم وهباء ديانتهم وانحطاطها وسخفها تحركوا للدفاع عن ديانتهم وآلهتهم لأنها جزء من رأس مالهم وعماد من أعمدة قوتهم .

---

(١) رواه الطبرى جـ ٢/ ٣٢٣ .

٣- ويستثنى من ذلك من عصم الله منهم بالإسلام ، أى من دخل فيه ، وهم قليلون ، وجدير بالذكر هنا أننا نريد بقريش رياستهم وأصحاب الرأى فيهم وزعماء بيوتهم وهؤلاء لم يدخل منهم فى الإسلام أحد ، ولا يستغرب هذا على من يعرف طبيعة رؤساء القرشيين كما وصفناهم واتجاهات فكرهم ، أو ما كان يعنيهم وما كان لا يعنيهم .

ولنأخذ مثالاً لذلك أبا الحكم عمرو بن هشام ، وهو أبو جهل ، فهذا الرجل كان يمثل الكهول من سادة القرشيين بعد جيل الشيوخ من أمثال الوليد بن المغيرة وعتبة ابن ربيعة وأبى أحيحة العاصى بن سعيد بن العاص . وأبو جهل كما يُفهم من كلام محمد بن حبيب النسابة فى المحبر كان فعلاً من سادات قريش ، كان كريماً وسيداً كبيراً ، ولولا ذلك لما تمنى رسول الله أن يفتح الله قلبه للإسلام ، فقد أُثِر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين » ، والأول منهما هو ابن الخطاب أما الثانى فأبو الحكم عمرو بن هشام .

وقد كان أبو جهل لا يحب محمداً وينفر من دعوته ولكنه فى عدائه له لم يَتَدَنَّ قط إلى مثل ما كان يتدنى إليه رجال مثل عُقبة بن أبى معيط والأسود بن عبد يغوث ، وإنما كان خصماً صريحاً ، لقد كان فيه حمق وحِدَّة ولكن ذلك لا يمنع من القول بأنه كان سيداً شريفاً ، وأنه كان إذا تروى فى أمر نفسه اعترف بخطئه ، ودليلنا على ذلك أنه بعد أن تجرأ بالعدوان على رسول الله عندما لقيه على الصفا فى الطريق إلى دار الأرقم مما أدى إلى إسلام حمزة وذهاب حمزة إلى أبى جهل - قال محمد بن إسحاق : « فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه به فشجَّه شجة منكرة ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فَرُدَّ على ذلك إن استطعت » ، فقام رجال بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : «دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً » وهذا كلام رجل يأسف على ما بدر منه ويعتذر عنه .

أما لماذا وقف أبو جهل من الإسلام هذا الموقف فلأن أبا جهل كان يمثل المجتمع الجاهلى الذى حكم القرآنُ بفساده ، ودعا إلى تغييره ، ومهما كان من مساوىء هذا النظام فقد كان أبو جهل من عُمده وكان من أكبر المفيدين منه ، وما دام الله يفتح عليه

أو يُنِرْ بصيرته فقد ظل يؤمن بأن نظامه الجاهلى خير نظام ، ولماذا يتخلى عنه وهو أساس قوته وغِنَاه ؟ وماذا يبقى له إذا هو أسلم وتخلى عن جاهه وثروته ومكانته وجالس أمثال : عبد الله بن مسعود ، وبلال بن رباح ، وخباب بن الأرَتِّ ، وعمار بن ياسر ؟

٤- ولكن أبا طالب عم رسول الله ﷺ وقف إلى جانبه وأيَّده . وأبو طالب لم يفعل ذلك عن إيمان بالإسلام أو فَهْم له ، ولكنه تولى حماية محمد ﷺ بدافع العصبية ، فهو رأس بنى هاشم ومحمد من بنى هاشم ، ويستبعد أن يكون أبو طالب قد تنبأ بانتصار الإسلام ، ولكن المؤكد أن دعوة محمد قد أعجبته من حيث إنها دعوة تولاها هاشمى هو ابن أخيه ، فهى مهما كانت حقيقتها ترفع من شأن بنى هاشم وتقويهم فى صراعهم الذى ذكرناه مع خصومهم من القرشيين ، وإذا كان أبو جهل قد ظل عمره كله لا يرى فى دعوة محمد إلا دعوة هاشمية قبلية ، فإن أبا طالب لم يبعد عن ذلك كثيراً وإن اختلفت النظرة باختلاف الموقف الذى ينظر منه صاحبه ، ثم إن أبا طالب رغم كراهته لرؤساء مكة الجدد . كان جزءاً من التنظيم الجاهلى لقريش ومكة ، فهو من سادات قريش ، وهو رئيس بيت بنى هاشم ، وهو صاحب الرفادة والسقاية أى المتولى شئون الدين وهو غير مستعد للتخلى عن شىء من ذلك فى سبيل دعوة لم يرزقه الله الفهم لها ولا البصيرة لإدراك غاياتها .

٥- فلما رأى رؤساء قريش أن محمداً مستمر فى دعوته ، وأنه لا يكترث بموقفهم منها ، ساروا إلى عمه أبى طالب .

أما الخبر الثالث فيرويه الطبرى ، وهو خبر حافل بالمعانى والحقائق لمن يريد أن يفهم نظام قريش ، ومن يريد أن يفهم الفترة المكية من السيرة النبوية الشريفة ، قال الطبرى راوياً عن « هشام بن عروة عن عروة (ابن الزبير) أنه كتب إلى عبد الملك ابن مروان[1] :

١- أما بعد ، فإنه - يعنى رسول الله ﷺ - لما دعا قومه إلى ما بعثه الله له من الهدى والنور الذى أُنزِل عليه لم يبعدوا عنه أول ما دعاهم وكادوا يسمعون له .

(١) سأقسم العبارة إلى فقرات حتى يسهل علينا تحليلها والخروج منها بالنتائج التى تهم بحثنا هذا .

٢- حتى ذكر طواغيتهم .

٣- وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه .

٤- واشتدوا عليه وكرهوا ما قال .

٥- وأغروا به من أطاعهم .

٦- فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم ، وهم قليل .

٧- فمكث كذلك ما قدر الله له أن يمكث .

٨- ثم ائتمرت به رؤوسهم أن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم .

٩- فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام .

١٠- فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء .

١١- فلما فُعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة .

١٢-وكان فى الحبشة رجل صالح يقال له النجاشى لا يُظْلَمُ أحدٌ بأرضه وكان يثنى عليه مع ذلك بصلاح .

١٣- وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش ، يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً .

١٤ - فأمرهم رسول الله ﷺ فذهب إليها عامتهم لما قُهِروا بمكة وخاف عليهم الفتن.

١٥ - ومكث هو فلم يبرح ، فمكث على ذلك سنوات .

١٦ - يشتدون على من أسلم منهم .

١٧ - ثم فشا الإسلام فيها ودخل فيه رجال من أشرافهم[1].

ففى الفقرة الأولى نرى قريشاً لم تنفر أول الأمر من دعوة الإسلام لأنها لم تر

(١) الطبرى ، تاريخ ، (المطبعة المنيرية) جـ ٢ ص ٣٢٨-٣٢٩ .

فيها خطراً على كيانها أو مساً بمصالحها وتجارتها ، بل إنهم - أى من كتلة قريش - كادوا يسمعون له .

وفى الفقرة الثانية نرى أن محمداً ﷺ ذكر طواغيتهم أى هاجم معبوداتهم ، وبهذا يكون قد مس مصالحهم وهددها . وقد تصدى له فى هذه المرحلة أنداده فى السن والمركز الاجتماعى فى المجتمع المكى واشتدت الخصومة بينهم من ناحية ومحمد وأتباعه من ناحية أخرى .

وفى الفقرة الثالثة نرى تطوراً حاسمًا يدخل على الموقف ، فقد دخل فيه عنصر جديد ، هذا العنصر يتمثل فى أولئك الناس الذين قدموا من الطائف لهم أموال أنكروا عليه واشتدوا عليه وكرهوا ما قال .

واضح أن أولئك الناس يختلفون عمن كانوا يعادون رسول الله ﷺ فى مكة قبل ذلك ، فهؤلاء القادمون ناس لهم أموال ، وكانوا فى ذلك الحين فى الطائف (يصطافون فى الغالب). وبمجرد وصول أولئك الناس فقد دخل الصراع بين الإسلام وخصومه من القرشيين فى دور جديد ، فإنهم أنكروا واشتدوا عليه وكرهوا ما قال . وهؤلاء الناس هم بالفعل سادة قريش الحقيقيون ، والمراد بهم كبار رجال القبيلة وسادة مكة ، ودليل ذلك أنه بمجرد أن أنكروا عليه وكرهوا ما قال انصفق أى (انفضَّ) عنه معظم أهل مكة لأنهم أغروا به من أطاعهم ، فلا بد أن يكون أولئك الناس هم رؤساء القوم ولهذا أطاعهم الناس .

وتلك هى الحقيقة الرئيسية التى تهمنا هنا ، فهؤلاء هم أصحاب الأموال فى مدينة يحكمها المال وأهله والناس طاعة لهم ، فخافهم عامة المكيين وانصفقوا عن محمد ؛ إلا من حفظه الله منهم وهم قليل . ومثل تلك السيطرة التى كانت لأولئك الناس على مكة تدل على أنهم كانوا يمارسون سلطاناً منظماً على المدينة وأهلها ، فإنهم بمجرد أن أغروا بمحمد ﷺ من أطاعهم انصفق عنه معظم الناس ولم يبق معه منهم إلا القليل .

وبعد ذلك بفترة ائتمروا فيما بينهم واتفقوا على أن يفتنوا عن الإسلام من تبعه من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم (الفقرة الخامسة) ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من

تبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء . مما يدل على أن الإجراء الذى اتخذه أولئك الرؤساء كان إجراءً حاسماً وخطراً على جماعة الإسلام مما اضطر الرسول إلى أن يقرر إنقاذ دين من بقى على الدين بإرسالهم إلى الحبشة (الفقرة١١) أى : أن رؤساء مكة هؤلاء استطاعوا أن يُخرِجوا من بلدهم معظم الجماعة التى خرجت عن طاعتهم واتبعت ديناً لم يرضوا عنه دون أن يؤدى ذلك إلى انشقاق فى رياسة القبيلة أى الجماعة التى كانت تملك المال والقوة .

وانصياع الناس لما يأمر به هذا النفر يدل على أنهم كانوا سلطة حاكمة فعلاً تمارس سلطاناً قوياً جداً على الناس إذا تعلق الأمر بالأموال والمصالح الرئيسية للجماعة المكية وقد رأوا بذكائهم أن دعوة محمد لم تكن بالدعوة اليسيرة التى يسهل التغلب عليها ، فقد كانت دعوة رفيعة إنسانية تستهوى القلوب يؤيدها قرآن محكم إذا استمع له الإنسان تأثر به ووصل إلى أعماق نفسه ولم يملك إلا أن يقتنع به ، ويتصور لنا هذا فى صورة مفصلة فى حديث إسلام عمر بن الخطاب ، فإذا كانت هذه الرياسة قد تمكنت من أن ترغم معظم من أقنع محمدٌ من أهلهم ورجال قبائلهم على الانصراف عن الإسلام فإن هذا دليل على أن رياسة قريش كانت رياسة فعلية ، فلم يبق مع الرسول إلا القليل ، وحتى هذا القليل خاف عليه رسول الله ولم يأمن عليه من البقاء فى مكة ، فقرر إخراجهم منها لكى يسلموا من الفتنة .

وقد أتيت بهذه الفقرة وقمت بتحليلها لكى أصور بالنص الناطق نوع السلطان الذى كان القرشيون يمارسونه على مكة ، وقوة تماسكهم بعضهم مع بعض ، فلم تنشق صفوفهم أمام هذه الفتنة ، ولم يتزلزلوا بها وإنما الذين زلزلوا كانوا جماعة الإسلام ، ولو كان السبب فيما حدث أمراً يسيراً لكان من المفهوم أن يستطيعوا التغلب عليه والمحافظة على وحدتهم أو جبهتهم ولكن السبب هنا كان قوياً جداً وهو تلك الدعوة الإسلامية الغلابة . وقد ثبتوا لها واستخدموا العنف مع أتباعها كأنهم سلطة حقيقية تستطيع أن تضغط وتعاقب وتُخرج من البلد من لا تريده فيها.

وقد أتيت ببقية نص خطاب عروة إلى عبد الملك بن مروان حتى يرى القارىء كيف كانت الحبشة مجال تجارة واسعة رابحة للقرشيين . يجدون فيها رفاغاً (سعة)

من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً . والحبشة كانت الميدان الذى يحصل منه القرشيون على بضائع أفريقية من زيوت وعاج وجلود وآبنوس وتوابل ورقيق ، فإذا كانت تجارة مكة مع الحبشة بهذا الاتساع فكيف كانت إذن تجارتهم مع اليمن والشام والعراق ؟

والآن وقبل أن نمضى فى تتبع نمو الدعوة وتطور موقف قريش منها نلقى نظرة على سير الدعوة نفسها وتكوين جماعتها الأولى فى هذا الدور من أدوار سيرها .

* * *

رأينا من كلام الزهرى الذى رواه ابن سعد فى طبقاته أن أوائل الذين دخلوا الإسلام كانوا من « أحداث الرجال وضعفاء الناس » وهذه ملاحظة لها أهميتها ، فقد كان أوائل الذين آمنوا بدعوة رسول الله ﷺ يتكونون من ثلاثة أصناف من الناس :

١ - فهناك جماعة ممن يسميهم الزهرى أحداث الرجال ، والمراد الشباب وغالبية هؤلاء كانوا بين الخامسة أو السادسة عشرة والخامسة والعشرين (فيما عدا على بن أبى طالب الذى كان فى العاشرة عندما دخل الإسلام) ومعظم هؤلاء كانوا من أفراد بيوت مكية كريمة ولكنهم كانوا لصغر سنهم يعيشون فى فراغ ، لأن التقاليد المكية كانت تجعل الأهمية كلها للولد الأكبر ، فهو الذى يرث أباه فى المكانة ومعظم المال إذا مات ، أما الابن الثانى ومن يليه فكان يعيش فى سعة وفراغ معاً ، ومن أمثلة هؤلاء الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعمر بن الخطاب نفسه ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، فكل هؤلاء وغيرهم كثيرون كان لهم إخوة كبار يحجبونهم ، فكان عليهم أن يعيشوا حياة فراغ ، ومعظمهم كانوا ينفقون وقتهم فى الصيد أو ركوب الخيل وما إلى ذلك ، فلما تسامعوا بدعوة الإسلام أعجبتهم ووجدوا فيها ميداناً جديداً ينفقون فيه نشاطهم المعطل ، وهذا فقد كانت الحركة الإسلامية فى مجموعها حركة شباب أو حركة شابة كما نقول ، ولم يكن فى الجماعة الإسلامية الأولى من يكبر الرسول فى السن إلا عبيدة بن الحارث بن المطلب ، فكان يكبر الرسول بنحو ست سنوات . وكان من بيت المطلب حلفاء بنى عبد المطلب فى كل موقف .

وأما ضعفاء الناس فيراد بهم بعض الأرقاء الموالى وحلفاء بيوت قريش وهؤلاء نعرفهم جيداً ، وأمثلتهم المعروفة لنا : بلال بن رباح الحبشى ، وخباب بن الأرت ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق .

ويضاف إلى هذين الصنفين صنف الباحثين عن الحق ممن يمكن أن نسميهم «الحنفاء» وإن لم يكونوا جميعاً منهم وأمثلتهم عثمان بن مظعون ، وزيد بن نفيل ، فهؤلاء كان من الطبيعى أن يجدوا فى الدعوة الإسلامية طلبتهم ، فما كادوا يسمعون بها حتى دخلوا فيها ، وبعضهم أراد الإسراف على نفسه بالتبتل ، ولكن الرسول نهاهم عن ذلك ، لأن الإسلام دين اعتدال .

ونلاحظ أن معظم هؤلاء دخلوا الإسلام مع نسائهم ، فزاد بذلك حجم الجماعة الإسلامية وأصبح أعضاؤها طرازاً خاصاً من أهل مكة ما بين قرشيين وغير قرشيين . وفى جماعتهم الجديدة أو حركتهم الجديدة تميزوا بالابتعاد عن الأوثان والتزام الطهارة والصدق والأخوة ومكارم الأخلاق ، وكل هذه أشياء كانت لا تعجب المكيين وبدت لهم غريبة غير مستحبة ، خاصة وأنهم كانوا من كل بيوت قريش ، فما بقى منها بيت إلا وفيه من دخل فى دعوة محمد وانفصل - روحياً على الأقل - عن قومه وأصبح غريباً بينهم ينظر فى إنكار لكل ما كانوا يعيشون عليه وبه ، وهذا أيضاً كان يثير غضب المكيين ، فلم يكن من المريح لأى قرشى وثنى أن يرى ابنه (أو ابنته) يتجه اتجاهاً جديداً فى حياته ويباين قومه ويألف أصحابه الجدد ويجالسهم ويتبع محمداً .

وهذا بالذات كان يغيظ المكيين وخاصة أنداد محمد فى السن والمكانة ، فهؤلاء كان من الطبيعى أن يكونوا أشد الناس إنكاراً له . فهذا ابن عم لهم كان واحداً منهم وقريناً لهم وصاحباً إلى الأمس فما باله يزعم اليوم أن الله اصطفاه واختاره لرسالة تجعله - على الأقل - طرازاً من الناس يختلف عنهم ، إن لم يحسوا أنه يرى نفسه أحسن منهم ، فهو لا يشاركهم أسلوب حياتهم أو لهوهم وينأى بنفسه عنهم ، ويجمع حوله طائفة من الشبان والضعفاء والحلفاء والغرباء ، وقد تصوروا لجهلهم بالدعوة ورفضهم أن يصغوا لها أنه يطلب بذلك مكانة أعلى من مكانتهم ، ولهذا فقد كان

إنكارهم له عداوة فى حين أن ذوى الأسنان من القرشيين من أمثال الوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأمية بن خلف كانوا أكبر من محمد سناً ، فهم ليسوا جلساءه ولا أنداده .

ولا يتسع المقام هنا لإحصاء من دخلوا الدعوة ومن عادوها فى دورها الأول هذا فالأولون قريبون من الستين أو السبعين رجلاً وامرأة ، وبيانهم نجده - مثلاً - عند النويرى فى نهاية الأرب (١٦/ ١٨٧وما بعدها) وقد ذكرت هذا المرجع المتأخر - زماناً - لأنه جماع يحصى ما وجده فى الكتب الأولى والتى كتبت بعدها ، ومع أننا لا نثق فى أمثال هذه البيانات لأن المسلمين غيَّروا وبدلوا فى أسماء هؤلاء المسلمين الأول التماساً للمكانة والجاه عند الناس ، ولكنك إذا تأملت البيان وجدت أنهم يمثلون كل بيوت قريش ، فليس هناك بيت من قريش البطاح أو قريش الظواهر إلا وكان منه مسلمون ، فكأن الإسلام لم يغادر بيتاً من بيوت المكيين إلا دخله ، مما يدل على أن الدعوة وجدت قبولاً كبيراً عند الناس ، ولم يكن على أحد ضير فى ذلك ، فهى دعوة نبيلة يفوز الإنسان منها بخير كثير دون أن يتعرض لأى ضرر .

ومن كبريات ميزاتها إذ ذاك أنها تجعل للإنسان مكاناً فى جماعة خيرة طاهرة تلتف حول نبى كريم كله فضل وخير ومحبة وحنو على البشر أجمعين وخاصة من استجاب لدعوته . وفى مجتمع مادى تغلب عليه الأنانية مثل المجتمع المكى الذى وصفناه كان الدخول فى الإسلام يرفع الإنسان فى نظر نفسه درجات ويشعره بشخصيته وقيمته ويربطه بخالق الكون سبحانه ويجعله من قراء القرآن وكلامه عذب جميل ومعانيه رفيعة فوق مستوى ما عرفه الناس بكثير ، أى أن الدخول فى الإسلام كان دخولاً إلى عالم جديد أو قل هو هجرة إلى دنيا جديدة ، هجرة إلى الله ورسوله ، وهذا هو سر حماس المسلمين الأُوَل لما دخلوا فيه وتمسكهم واعتزازهم به .

ولم يكن الإسلام قد سُمِّى باسمه بعد ، فكان الناس يدخلون فى دعوة محمد أو فى دين محمد ، أو يتابعونه أو يقولون قوله ، أما القرشيون فكانوا يقولون إن فلاناً قد صبأ أو دخل فى أمر محمد . وإذا أخذنا بما كان محمد ﷺ يجيب به من كانوا يريدون الدخول فى دين الله مثل عتبة بن غزوان المازنى السلمى وجدنا أن الإسلام كان يقتصر على

التصديق بالوحدانية ورسالة محمد ﷺ وترك الأوثان وحقن الدماء وصلة الأرحام[1]. وكانت الصلاة صلاتين ، واحدة فى الصباح والثانية بعد مغيب الشمس يسبق كلاً منهما وضوء أو طهارة.

أما من تصدى لدعوة محمد وعاداه دون داع فهم أنداده فى السن من معظم بطون قريش وعلى رأس هؤلاء أبو الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى وهو أبو جهل وأبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث (من بنى زهرة) والحارث بن قيس (من بنى عدى بن كعب بن لؤى وهم رهط عمر بن الخطاب) وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة (من مخزوم) والعاصى بن وائل السهمى والنضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف والعاص بن سعيد بن العاص (من بنى عبد شمس) وعتبة بن أبى معيط (من بنى عبد شمس) ، ويضيف أصحاب السيرة أن معظم هؤلاء لم يكونوا أنداد رسول الله ﷺ فى السن فحسب ، بل كان الكثيرون منهم جيرانه.

وهؤلاء وأمثالهم تصدوا لمحمد والمسلمين بمجرد أن أحسوا أن القرآن يقصد ديانتهم وآباءهم وما كانوا يعبدون ، هؤلاء جعلت عداوتهم للرسول وأصحابه تتزايد حتى لجأ الرسول وجماعته إلى دار الأرقم ، وفى دار الأرقم أسلم مسلمون كثيرون منهم حمزة بن عبد المطلب ، وكان إسلامه فى آخر العام الثالث للبعثة ، وعقب إسلامه تشجع المسلمون وخرجوا من دار ابن الأرقم وأسرعوا إلى منتدى قريش حول الكعبة حيث كبَّروا ودعوا بإسلامهم ، فتجمع عليهم المشركون وضربوهم ضرباً مبرحاً كاد أبو بكر يهلك منه . وعادوا إلى دار الأرقم حتى أسلم عمر أواخر السنة الخامسة للبعثة ، وبإسلام عمر ترك المسلمون دار الأرقم نهائياً وبدأت المواجهة الحاسمة بينهم وبين القرشيين وتحرج الموقف ، وهنا كان مجىء شيوخ قريش من ذوى الأسنان من الطائف ، ويمثلهم الوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف السهمى ، وهؤلاء هم الذين يشير إليهم خطاب عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان الذى

(١) انظر الاستيعاب لابن عبد البر النمرى ١/ ٤٤٣ وأسد الغابة لابن الأثير ٤/ ١٢٠ والنويرى ١٦/ ١٩٢-١٩٣.

عرضنا له بالدراسة والتحليل ، وفيه إشارة إلى نصح الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فبدأت حركة الهجرة .

وبقى رسول الله فى نفر قليل من المؤمنين وثبت للمحنة ، وهم لم يستطيعوا إيذاءه أو إيذاء حمزة أو أبى بكر أو عمر ومن إليهم لأنهم كانوا ينتمون إلى بطون كبيرة من بطون مكة ذات السلطان والعزوة . وقد أدرك أولئك القرشيون أنهم لو آذوا رسول الله أو واحداً من كبار المسلمين من حوله لحدث صدع فى بنيان قريش ، وهى صاحبة السيادة على البلد ، وكانوا أكيس وأبعد نظراً من أن يحدثوا ذلك الصدع .

ومع أنهم كانوا يستطيعون ترك الأمور على ما هى عليه بعد اضطرار هذا العدد العظيم من المسلمين إلى الخروج من بلدهم ، إلا أن خوفهم على سلطانهم دفعهم إلى محاولة التخلص من ذلك الخطر .

وهكذا يتجلى لنا جانب جديد من سياسات أولئك القرشيين ، فقد وجدوا فى رسول الله ودعوته خطراً حقيقياً لابد من تلافيه فبدأ كبارهم وشيوخهم يتصلون بأبى طالب للتفاهم معه ، فهذا رجل من كبارهم وقد تصوروا أنهم يستطيعون التأثير على محمد عن طريقه بعد أن فشلوا فى محاولتهم الأولى إيقاف دعوة محمد بالعنف لجأوا إلى المفاوضة مع أبى طالب وقد تعودنا أن ننظر إلى أولئك القرشيين على أنهم حفنة من الأغبياء أو الحمقى ، وما أظن أن ذلك يكفى لتفسير أسلوبهم فى العمل ، فإن القرآن نفسه لا يعطيهم هذا الوصف ، وهو لا ينكر عليهم الذكاء أو القدرة ولكنه عزا عنادهم فى المكان الأول إلى أن قلوبهم كانت غلفاً مغلقة دون الدعوة ، لأن الله طبع على قلوبهم وأبصارهم لا ترى الحق لأن عليها غشاوة .

وهذه الغشاوة التى حالت بينهم وبين النظر السليم إلى الإسلام هى النظام العام الذى كانوا هم سادته والمنفردين بكل خيراته وميزاته ، ومادام هذا هو وضعهم فيه فكيف يُسلِّمون بأنه نظام فاسد ينبغى استبدال غيره به ، وإذا كانوا يعتقدون أنهم سادة الناس وأفضل الناس ، فكيف يؤيدون دعوة تقول إن خير الناس هم أتقى الناس لا أغناهم وإن أبا الحكم عمرو بن هشام يتساوى مع خباب بن الأرت ذلك القين الفقير الطارىء على مكة ومجتمعها ، والذى كان إلى دخوله الإسلام يعتبر فى مراتب العبيد والأرقاء .

عندما ننظر إلى الموقف من هذه الزاوية نفهم لماذا نفر أبو جهل ومن معه من دعوة الإسلام ، لقد كان الثمن الذى يتعين عليهم أن يدفعوه أكثر مما يستطيعون أداءه ، نعم أسلم رجال مثل حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ومصعب بن عمير ، ولكن هؤلاء لم يكونوا سادة قومهم ، إنما كانوا سادة فى قومهم والفرق كبير بين الوضعين ، ويتجلى لنا ذلك فى موقف أبى طالب ، فقد كان هذا الرجل يحمى رسول الله ﷺ ويحدب عليه ولكنه كان سيد قومه فلم يستطع التضحية بهذه السيادة ، والسيادة فى هذه الحالة كانت غشاوة على عينيه ، وإذا كان قد رأى شيئاً فى الدعوة المحمدية فهى أنها كانت فى آماله سبيلاً يستعيد لبنى هاشم وبنى عبد المطلب مكانتهم فى المجتمع المكى ويعيد إليهم قوتهم وسلطانهم ، وهنا نجد أن أبا طالب يقف فى نفس الصف مع أبى جهل ، فقد كان أبو جهل لا يشك فى أن الإسلام حيلة من محمد لكى يستعيد بنو هاشم مكانتهم عن طريقها وله فى ذلك كلمة مشهورة ، قال : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الرُّكَب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ».

وربما جاز لنا أن نقول هنا إن قريشاً هى التى حالت بين أولئك الناس ودخول الإسلام ، لقد كانت قريش بناء ضخماً عريقاً بناه القرشيون جيلاً بعد جيل ووصلوا بقبيلتهم إلى أن تكون أغنى قبائل الجزيرة وأكثرها تماسكاً وأحسنها بقعة وموطناً ، وبينما كان رؤساء كبريات القبائل من أمثال تميم وغطفان وهوازن شيوخ جماعات بدوية فقيرة إلى حد كبير كان سادات قريش رجالاً على مستوى رفيع من الغنى والمكانة والقوة كانوا يداخلون بطارقة قيصر وأساورة كسرى ونجاشى الحبشة ويتعاملون بألوف الدنانير ثم يطالبهم محمد بأن يتركوا ذلك كله ويدخلوا عقيدة جديدة تنزع عنهم هذا العز كله وتدخلهم فى مغامرة لم يستطيعوا قط أن يدركوا معناها أو مغزاها ، وحتى عندما بسط لهم القرآن الأمر وقرَّبه إلى أفهامهم وخاطبهم بلغة التجار ، وقال على لسان نبيه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصف] .

وهذه اللغة الواضحة المنطقية لم يفهموها أو يقبلوها بالذات لأنهم تجار أغنياء وأصحاب سلطان ، فإن تجاراً من طراز تجار قريش فى ذلك العصر لا يبادلون شيئاً مادياً ملموساً هو فى أيديهم بوعد معنوى غير ملموس ليس فى أيديهم ، وأما أهل السياسة والسلطان فلا يتنازلون قط عن سلطان يتمتعون به ، وليست هناك شهوة هى أقوى فى نفوس الرجال من شهوة السلطان والقوة والتسلط على الآخرين .

يئس إذن رسول الله ﷺ من قريش ، ويئست منه قريش ولكن القلق أخذ يساور القرشيين لأن دعوة الإسلام كانت تتسع يوماً بعد يوم ، لأن مكة كانت حافلة بأقوام كانوا فى أشد الحاجة إلى هذه الدعوة فهم مظلومون يطلبون العدل ، وهم ممتهنون يطلبون الكرامة ، وهم فقراء فى حاجة إلى باب من أبواب الأمل يُفتح هم ، وفيهم الكثيرون ممن كانوا لا يطمئنون إلى الوثنية الغالبة ، فوجدوا فى دعوة الإسلام عقيدة رفيعة تملأ القلب والنفس وتريح قلب الحائر ، وكان فيهم كذلك شباب متطلع يبحث عن طريق للعمل وإظهار المواهب .

ولم يكن أمامهم طريق لذلك فى ظل النظام القائم الذى يجعل للابن الأكبر معظم ميراث أبيه من المال وكل ميراث أبيه من المكانة والأهمية الاجتماعية أو السياسية فى ذلك المجتمع القبلى الروح والنظام كما ذكرنا ، وأمثلتهم عندنا كثيرة أظهرها حمزة بن عبد المطلب وكان من أصغر أولاد عبد المطلب ولا سبيل له إلى مكانة أو قيادة مع عظيم مواهبه ، وعمر بن الخطاب ، كان يحجبه أخوه الأكبر زيد ، فهؤلاء عندما فتح الله قلوبهم للإسلام دخلوا فيه وما لبثوا أن وجدوا فيه المكانة والرسالة التى تجعل لحياتهم معنى وقيمة .

ورأى القرشيون أنهم لو تركوا الأمور تسير على ما كانت تسير عليه فإن الإسلام

سيبتلعهم ابتلاعاً ، فإن الاستعداد للإقبال عليه عظيم ، وأنا أعنى بالقرشيين هنا رؤساء قريش وأصحاب الثروة والسلطان فيها ، وهنا نجدهم يتصرفون تصرفاً قبلياً ، فهم ليسوا حكومة ولا دولة ، وهم لا يملكون - تبعاً لذلك - أدوات للسلطة من مثل شرطة أو أداة تنفيذية أو عسكر قائم ، وإنما كانت قوتهم فى تسيير أمورهم الداخلية فى النظام القبلى وما له من تقاليد هى فى ذاتها تقوم مقام الهيئات التنفيذية القائمة فى نظم الدول ، وكان هذا النظام - مثله فى ذلك مثل الدستور الإنجليزى - يقوم على ضوابط وموازنات Checks and balances تعمل بطريقة عرفية فى ذلك المجتمع القبلى تحافظ على سلامته وأمنه .

فلننظر هنا كيف واجه الرؤساء المكيون مشكلة خطر الدعوة المحمدية ، فهم من ناحية ضغطوا على من استطاعوا الضغط عليه من أفراد الجماعة الإسلامية حتى أخافوهم أو « زلزلوهم » كما تقول النصوص ، فافتتن منهم من افتتن وبقى من عصم الله وهم قليل ، وبعد أن «أخرجوا » من بلدهم عدداً من المسلمين وهم الذين هاجروا إلى الحبشة اتجهوا إلى معالجة موضوع محمد نفسه عن طريق عمه ورئيس قبيلته وحاميه أبى طالب ، وهنا نجد تصرفهم يسير وفق منطق واضح يقوم على تفكير سليم .

وهنا نورد نصاً عظيم القيمة لابن إسحاق ، ونلاحظ هنا أنه أخذ فقرات من خطاب عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان دون أن يشير إليه قال :

١ -« فلما نادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه - فيما بلغنى - حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستَخْفُون » .

٢- وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه .

٣- ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله ، مظهراً لأمره لا يرده عنه شىء .

٤- فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعْتِبُهم (يستمع لعتبهم ويستجيب له) من شىء أنكروا عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب

عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر .

قال ابن إسحق ، وأبو البخترى واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مـرة بن كعب بن لؤى . قال ابن هشام : أبو البخترى : العاص بن هشام .

قال ابن إسحق : والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

وأبو جهل واسمه عمرو ، وكان يكنى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى ، والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى .

ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لؤى .

والعاص بن وائل .

قال ابن هشام : العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى .

قال ابن إسحاق : أو من مشى منهم .

ثم يأتينا ابن إسحق بحديث اللقاء الأول بين ممثلى قريش هؤلاء - وليس فيهم من الهاشميين إلا أبو لهب - وبين أبى طالب ، وستكون لهم معه ثلاثة لقاءات أخرى قبل أن تقع القطيعة بينهم وبينه . وكل لقاء من هذه الأربعة يعنى مرحلة من مراحل الحوار بين قريش وأبى طالب له محور يدور حوله ، أى أن قريشاً كانت تتقدم إلى أبى طالب بعرض وتناقشه فيه ، فإذا لم تفلح انصرفت وفكرت فى محور آخر أو عرض جديد تعرضه على أبى طالب ، وهكذا حتى أصبحت اللقاءات والعروض أربعة ،

فلما يئست قريش من أبى طالب لجأت إلى العنف ، وهذا مسلك ناس عقلاء يواجهون مشكلة ويحاولون أن يجدوا لها حلاً . وهذا الأسلوب فى البحث عن حل عن طريق التفاهم والحوار يكشف لنا عن عقلية القرشيين وطريقتهم فى العمل ، وهى طريقة بعيدة جداً عن الحمق والغباء .

وقد أوردت أسماء الرجال الذين مشوا إلى أبى طالب يكلمونه ليتبين القارىء خلفياتهم القبلية ومراكزهم الاجتماعية ، والآن ننظر فى هذا اللقاء الأول لنرى ماذا كان فيه .

٥- « فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردَّهم رداً جميلاً . فانصرفوا عنه »

ونلاحظ هنا أن وفد قريش الذى ذهب للقاء أبى طالب يمثل طبقاتهم جميعاً : الشيوخ والكهول والشباب ، ولكن ليس فيهم واحد من السفهاء من أمثال عقبة بن أبى معيط أو النضر بن الحارث بن كلدة ومن إليهم . وابن إسحاق يحرص على أن يرينا أنهم كلهم يرجعون إلى لؤى بن غالب بن فهر أى : من صميم عمود قريش ، وهو عمود النسب النبوى .

وهم فى كلامهم مع أبى طالب يتحدثون فى رزانة وحكمة ، وهم يخيرونه بين أن يكفه عنهم أو يتولوا هم الأمر بأنفسهم ، ويُذكِّرونه بأنه مثلهم : « فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه » .

ولا شك فى أن هذا اللقاء سَرَّ أبا طالب ، فقد رأى نفسه موضع اهتمام كل القرشيين وخاصة زعماء البيوت المنافسة التى كانت قد غصبت الرياسة القبلية فى مكة وما دام أبو طالب على مثل موقفهم من الإسلام أى لم يتابع محمداً فيما يدعو إليه فهو حرى بأن يستجيب لهم .

ولم يفعل أبو طالب شيئاً ، وفى نفس الوقت زادت دعوة الإسلام انتشاراً ووضح

الخلاف بين أهل مكة حول دعوة محمد ﷺ وأصبحت المشكلة تهدد وحدة قريش ، قال ابن إسحاق : « ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه . ثم سرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وأكثرت قريش من ذكر رسول الله ﷺ بينها ، فتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضاً عليه » .

وهنا وأمام هذه الفتنة نجد زعماء قريش يقصدون أبا طالب مرة أخرى ، وهذا هو اللقاء الثانى بينه وبينهم ولكنهم الآن لا يحدثونه على أنه واحد منهم بل هم يخاطبونه مخاطبتهم لرجل يوشك أن يصبح خصماً لهم ، فهم يهددونه وينذرونه ولكنهم مع ذلك يَدَعون له التصرف قبل أن يقدموا على شىء : « يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ، أو كما قالوا له ، ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يَطِبْ نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه » .

وهنا نرى أبا طالب فى موقف عسير ، فهو من ناحية يرى أن قومه يهددونه ويخيرونه بين أن يستعمل سلطانه على محمد فيكفه عنهم أو يحاربون حتى يهلك أحد الفريقين .

وأبو طالب يرى أنه إذا أصر على تأييد محمد فإن قريشاً ستعلن عليه الحرب ، وهو يشعر أنه لا يستطيع الثبات لهم ، ثم إنه لا يريد أن يفقد مكانته فى قريش أو فى بنى هاشم ، ومعظمهم متعاطفون مع محمد ، ويتجلى موقفه من الكلام الذى قاله لمحمد ﷺ عندما استدعاه ليتحدث معه بعد أن هددته قريش : « إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، لا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » . وإلى هنا ولم يكن أبو طالب يدرك معنى الرسالة المحمدية ولا هو أدرك أن ابن أخيه يبشر بدين جديد ، وأنه مستعد للتضحية بنفسه فى سبيل رسالته ، وهذا هو الذى قاله محمد ﷺ فى رده المشهور على عمه : «يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» ثم يقول ابن إسحاق : «فاستعبر رسول الله ﷺ ، فبكى ، ثم قام ،

فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه، فقال : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً » .

وهنا أدرك أبو طالب أن الأمر وصل بينه وبين بقية قريش إلى حد ليس بعده إلا المواجهة بالعنف ، وبالفعل بدأ خصوم محمد فى إيذاء من يستطيعون إيذاءه ممن بقى فى مكة من أصحاب محمد ، قال ابن إسحاق : « فحقب الأمر وتنابذ القوم وعادى بعضهم بعضاً ، قال : ثم إن قريشاً تذمروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله تعالى منهم رسوله بعمه أبى طالب » .

ووجد أبو طالب أنه فى حاجة إلى عون عشيرته من بنى هاشم وأراد أن يستوثق من نصرهم إياه ، قال ابن إسحاق : « وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبى لهب » .

وإذن فقد حدث ما كانت قريش تخشاه ووقع شرخ خطير فى بنائها وقيادتها ووقف بنو هاشم وبنو المطلب ، وهم من سادتهم - بقيادة واحد من كبار قادتهم وهو أبو طالب ، وقفوا معادين لبقية قريش وقادتها .

وآرنولد توينبى يقول : إن الجماعات والدول تأخذ فى التصدع عندما يقع كسر فى الرأس أى فى الصفوة القائدة أو بحسب تعبير a breach in the leadership وهو يضرب الأمثلة لذلك من تاريخ الرومان مثلاً عندما انقسمت الصفوة القائدة على نفسها ووقع الصراع بين الأخوين جراكوس وبقية قيادة الرومان ، ووقعت الحروب بين ماريوس وسولا ، وبين قيصر وبومبى وبين أوكتافيوس وأنطونيوس . هنا حدث الصدع العميق الذى وضع حداً للجمهورية الرومانية وقيام الامبراطورية الرومانية وتحكُّم الفرد الواحد imperator فى شئون الدولة ، وهذه هى البداية الحقيقية لتصدع دولة الرومان وتدهورها .

وهذا هو ما أحست به قريش وأرادت أن تتلافاه بهذه اللقاءات ، وقد فصَّلنا

الكلام فى واحد منها ، فلنكمل الكلام عن اللقاءين الباقيين . ماذا تم فيهما ؟ ونقرأ من خلالهما أفكار قريش ونتعرف موقفها من الإسلام وكيف كانت نظرتها إليه .

واللقاء الثالث لم يكن بين أبى طالب وقريش بل بينها وبين محمد نفسه ، ويبدو أن قريشاً عندما وجدت أن أبا طالب لا يستطيع عمل شىء أو هو لا يريد أن يعمل . فكر الوليد بن المغيرة المخزومى - وكان من أجلاء القرشيين وأصحاب السن والرأى منهم - أن يخلو بمحمد ﷺ ويكلمه فى رفق لعله ينتهى معه إلى حل يتراضى عليه الناس . وكان الوليد شيخاً ذا مكانة عالية وكان لا يخلو من خبث . وكان يرجو أن يجد طريقاً ينفذ به إلى نفس محمد ، وهو لم يفكر قبل ذلك فى أن يروى أمر محمد فيما بينه وبين نفسه أو يصغى إلى القرآن ويسمع من محمد ما يقول ، فلعل ذلك يعينه على الاقتراب منه ودعوته وفهمها ، فإن هى أعجبته دخل فيها وإلا كان له شأن آخر ، ولكنه ذهب ليكلم محمداً بعقليته الجاهلية وبمنطق أمثاله من سروات المكيين الذين يحسبون أن كل شىء تجارة أو مال أو أشياء مادية .

وخبر هذا اللقاء يرويه ابن إسحاق ويجعله بعد إسلام حمزة ، أى أنه كان على حسابنا - خلال السنة الثالثة للبعثة وقبل هجرة المسلمين إلى الحبشة، وكان محمد إلى الحين يدعو فى دار الأرقم - وفترة دار الأرقم على قِصَرها ، فهى لم تزد على ثلاث سنوات - كانت من أبرك أدوار الفترة المكية ، لأن دخول الرسول إياها ودعوته ولقاءه أصحابه فيها شجع الكثيرين على الدخول فى الدعوة ، فقد كانت أمامهم الفرصة ليجتمعوا برسول الله ﷺ آمنين خالين به فيسمعون منه القرآن ويصغون إلى كلامه ويستفسرون منه عما يريدون ويحسون بذلك المناخ العائلى الإنسانى الذى كان يشمل هذه الجماعة ورسول الله فى وسطها أباً حانياً ورسولاً هادياً وقلباً كبيراً عظيماً يُحدِّث الناس جميعاً فى رفق وأناة ، وكان من أجمل الناس هيئة وأبهاهم طلعة وأحرصهم على حسن مظهره ونظافة ثيابه ، هذا إلى لين جانب ومودة وحدب على الناس ورغبة فى مساعدتهم على حل مشاكلهم ، وهذا طراز من حياة اجتماعية لم يألفها العرب أو يعرفوها ، فازداد الناس إقبالاً على الإسلام ليصبحوا أعضاء فى تلك الحياة الجديدة ثم للدخول فى الإسلام والفوز بنعمته .

ولم يحاول الوليد بن المغيرة وأضرابه قط أن يعرفوا الدين الذى يدعو إليه محمد والمجتمع الذى ينشأ عن الإيمان بهذا الدين ، وإنما هو صم أذنيه عن القرآن وأغلق عينيه عما كان يستطيع أن يرى ، ولهذا فقد كان مدخله فى الحديث مع محمد مدخلاً جاهلياً يعارض كل المعارضة ما يدعو إليه رسول الله .

فقد وجد الوليد بن المغيرة هذا محمداً فى مجلس قريش منتحياً بنفسه عن الكعبة فاقترح على من كان حوله من القرشيين أن يقوم إلى محمد فيعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضاً منها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا . فأقروه على رأيه ومضى ليكلم محمداً ، فلما جلس إليه كان كلامه معه جاهلياً أو قل قرشياً صرفاً فهو لا يحاول أن يفهم شيئاً مما يدعو إليه ، وإنما بدأ - فى رفق طبعاً - فذكَّره بما فعل بقومه - فى رأيه - « وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرَّقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضاً ، قال : قل يا أبا الوليد ، أسمع » .

وهنا يبدأ فيعرض على محمد السيادة فيهم « حتى لا نقطع أمراً دونك » أو المال حتى يكون أكثرهم مالاً . والنص يقول إنه عرض عليه الملك ، وهذا مستبعد فإن قريشاً لم تكن تقبل الملك أو ترضاه وبعد ذلك يعرض عليه أمراً مهيناً حقاً يدل على أنه كان أبعد الناس عن فهم محمد : «وإن كان هذا الذى يأتيك رئيّاً تراه لا تستطيع ردَّه من نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نعالجك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال[1]. فاستمع له رسول الله هادئاً مستجمعاً نفسه ثم قال له : فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : افعل « ثم قرأ رسول الله ﷺ أول سورة فُصِّلَت وهى الثانية والسبعون فى ترتيب النزول والحادية والأربعون فى ترتيب المصحف : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ ﴾ [فصلت] .

ومع أننا نعلم أن مطلع هذه السورة كان نزوله فيما بعد الفترة التى نؤرخ لها الآن

(١) ابن إسحاق برواية ابن هشام ١/ ٣١٤ .

إلا أنها تصور تماماً المعانى التى لابد أن يكون رسول الله قد ألقاها إلى الوليد بن المغيرة ، ذلك السيد القرشى الذى كان ينتمى إلى ذروة ما كان العرب يسمونه بالشرف أى علو المنزلة فى الجماعة ، وهذه المعانى كانت غائبة تماماً عن ذهنه ، وعندما تلا عليه رسول الله ﷺ مائلاً من الآيات كانت تلك فيما نرى من النص أول مرة يستمع فيها الرجل إلى آيات من القرآن ملياً فأدرك معناها ومغزاها وأثَّرت فى نفسه ، وأدرك أنه لا يُحدِّث رجلاً طالب مال أو سيادة أو نساء أو متاع أو رجلاً مريضاً ، وإنما هو رجل فى الغاية من العقل وسلامة الحواس واستجماع الرأى ، والمعانى التى فهمها من معانى القرآن - وهى لا تخرج عن معانى فاتحة سورة فصلت التى أتينا بها - كان لها وقع عظيم فى نفسه . فلم يرد على محمد كلاماً ، وعاد إلى قومه متغير الوجه ، ولاحظ قومه ذلك .

ولكن نتيجة لقائه مع محمد ﷺ تدل دلالة واضحة على أن هذا الرجل وأضرابه لم يكن لديهم أى استعداد للدخول فى دعوة محمد ، وأقصى ما كانوا مستعدين له هو مهادنة الحركة الإسلامية أو عدم التعرض لها ، قال : « ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه . فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كُفيتُمُوه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعِزُّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به !».

فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد ، قال: « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم[1]».

وهذه مقالة رجل أنانى مادى جامد القلب ، فهو قد عرف الآن أن محمداً ليس بساحر ولا كاهن ولا مسحور ولا طالب مُلْك أو جاه أو متاع . وإنما هو رجل يطلب ما هو أرفع من ذلك وأسمى : إنه صاحب رسالة عظمى . وبدلاً من أن يحاول أن يزداد علماً بها وربما دخل فيها فهو ينصح قومه بأن يدعوا محمداً وشأنه فإذا دخل العرب فى دعوته أفادوا هم من ذلك لأنهم قومه ، وإذا قضى العرب عليه كفاهم ذلك مشقة الصراع معه .

(١)ابن إسحاق برواية ابن هشام ١/ ٣١٤ .

وخبر هذا اللقاء الثالث بين قيادة قريش المعارضة للإسلام والإسلام إما مباشرة مع محمد ﷺ أو غير مباشرة عن طريق أبى طالب ، تكشف لنا عن طبيعة القرشيين وخبثهم والأنانية والحرص على أنفسهم وقبيلتهم ومراكزهم فيها بالتالى ، فهم لا يريدون أن يتنازلوا عن شىء ولكنهم يريدون كسب كل شىء بل نفهم من كلام هذا الرجل أنه لا يريد أن يستغل محمداً والإسلام لما فيه خيره وخير نظامه الاجتماعى . والغريب أن شيئاً من هذا سيحدث بعد الإسلام عندما استعملت قريش أمة الإسلام لخيرهم .

والاجتماع الرابع كان بين محمد ﷺ وملأ قريش . وهو فيما يبدو اللقاء الأخير بين الجانبين قبل أن تكون القطيعة . وقد روى لنا خبر هذا اللقاء ابن إسحاق ورواه لنا ابن هشام فى السيرة(١).

وقبل أن يروى لنا ابن إسحاق نبأ هذا اللقاء يقول إن الإسلام « جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ثم اجتمعت أشراف قريش من كل قبيلة كما روى عن سعيد بن جبير وابن عباس ، قالا ...» .

ويُفهم من هذا الكلام أن محمداً والإسلام أصبحا محور الاهتمام والكلام كله فى مكة ، فقد كانت اللقاءات التى ذكرناها تزيد من تنبيه الناس للإسلام فلا يكاد الواحد منهم يستمع لكلام رسول الله حتى يدخل فيه ، وقد كان الأمر أولاً أمر جماعة صغيرة تمارس عباداتها واجتماعاتها فيما بينها ، أما الآن فقد اتسع النطاق وتحول الأمر بالنسبة للقرشيين من مجرد حركة محدودة لايستريح إليها القرشيون ولكنهم لايخشونها إلى حركة واسعة النطاق تشمل الآن مئات الناس . فمعظم بيوت مكة فيها إسلام وفيها قرآن ، والدعوة التى ينادى بها محمد يتسع مداها وتصل إلى معظم الناس فيجدون فيها جاذبية ويحسون نحوها بميل ، والكثيرون منهم يدخلون فى الدعوة وسادات قريش يرون هذا كله بعين الجزع والخوف ، فالحركة الجديدة تزرى بهم وبأديانهم وآلهتهم وآرائهم وتسفه أحلامهم وأحلام آبائهم ، ومعنى هذا أن الزمام يفلت من أيديهم .

---

(١) ابن هشام ، السيرة ١/ ٣١٥ وما بعدها .

ثم إن الأمر الآن يتعلق بأديانهم وبيوتهم وأحسابهم ، وتحول بذلك إلى خطر حقيقى عليهم ، وعلى ثرواتهم ومراكزهم وقد بذلوا ما استطاعوا مع أبى طالب ثم مع محمد ، ولم يبق أمامهم إلا القيام بعمل حاسم ، ولكنهم بعد أن تشاوروا فى الأمر رأوا أن يتصلوا جماعة بمحمد ويتحدثوا معه فى الأمر ملياً ، فيحاولوا أن يعرضوا عليه الصلح ، فى مقابل عرض مادى فإذا لم يسمع تحدَّوْه - فى ظنهم - فى صميم الرسالة الإلهية والدعوة التى يبشر وينذر بها وأعجزوه وقامت عليه بذلك الحجة الفاصلة . وأحسن القوم التدبير فيما ظنوا ، ودعوا محمداً إلى المناقشة بعد غروب يوم من تلك الأيام غير بعيد من الكعبة .

وكان المجتمعون يمثلون كل طوائف الجبهة القرشية ، ففيهم المعتدل الذكى البعيد النظر عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابن عمهما أبو سفيان تِرْب محمد وابن جيله - وكان إلى الآن يقف فى الصفوف الخلفية للمعارضة إذ إن دوره لم يكن قد حان بعد - وكان فيهم الخصم الصريح العنيد أبو جهل ، وكان هناك نفر من الجماعة التى يسميها أصحاب السيرة « المؤذين » ومثالهم زمعة بن الأسود ونُبيه ومنبِّه ابنا الحجاج السهميان ، وحضر محمد ﷺ مبادراً فما كان يحيد عن أى لقاء ، وهنا تحدوه وقالوا له ما معناه إن كنت نبياً حقاً فإننا مستعدون بالتسليم لك إذا أتيتنا بدليل مما كان الله يؤيد به الأنبياء قبلك. نريدك أن تأتينا الساعة بمعجزة ، بشىء يؤكد ما تقول من أن الله معك ومؤيدك وناصرك ، والذى طلبوه منه وارد بأبلغ بيان فى الآيات ٨١ - ٩٣ من سورة الإسراء التى أنزلت بعد ذلك بسنوات ، ومعظم آيات هذه السورة تصوير للجدل المجهد والتعبير السيء والتهديد الخطر الذى كان يواجه الرسول صلوات الله عليه وهو صامد وحيد تقريباً أمام تلك العصبية العنيدة القوية من كفار قريش الذين تصدوا - فى تصورهم - لحماية مجتمعهم من الخطر الذى تمثَّل لهم فى محمد ﷺ ودعوته .

قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ

لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء] .

وقد تصوروا أنهم بهذا التحدى المتوالى والمتصاعد فى تعجيز محمد ﷺ أنهم واضعوه فى حرج لا مخرج له منه ، وهم فى موقفهم هذا ومن قاعدتهم الوثنية على حق ، فإن النبى تؤيده معجزات ربه لكى يرى خصومه أن ربه ميَّزه وأيده ومنحه من قدرته شيئاً يقنع المكابر . وغاب عنهم أن عصر رسل المعجزات قد انتهى بمعجزات عيسى ، وإذا كانت معجزات عيسى بن مريم لم تفلح فى دفع الناس جميعاً فى طريق الهداية فلماذا تتكرر ؟ لأن المعجزة ربما أقنعت من يراها تحدث أمام عينيه فما بال من لم يرها ؟ أيظل الله سبحانه يرسل أنبياء بمعجزات لإقناع كل إنسان على وجه الأرض وكل جيل من أجيال البشر ؟

لقد فعلت الكاثوليكية هذا واضطرهم الأمر فى النهاية إلى القول بعقيدة استمرار المعجزات ، زعموا أن القديسين يأتون بمعجزات وأن الكنيسة هى التى ينبغى أن تحكم فى أمر ما يُدَّعى من معجزات فإذا أقرت مجالسها ذلك فالمعجزة قد وقعت وصاحبها قديس ولو كان صبية ساذجة مثل برناديت التى قالت إن مريم العذراء ظهرت لها وهى عند نبع الماء عند قرية لورد فى جنوب فرنسا . والمجلس الكنسى أيد صحة ما قالته الصبية وجعلوها قديسة ، وقرية لورد أصبحت مزاراً مسيحياً ، أما الإسلام فقد وقف الموقف الحاسم المعقول من هذا الأمر كله ، وإذا كان لابد من معجزة لإقناع البشر فهذا هو القرآن معجزة محمد ومعجزة الإسلام المتجدد على مر العصور ، فإن كان هناك من يريد أن يُكذِّب بها فليأت بمثلها ، ومحمد لن يأتى بمعجزة مما طلبوا وفى يده بينة القرآن ، ولهذا فإن تمام هذه الآيات يقرر هذا المعنى :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ

خَبِيراً بَصِيراً ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء] .

ورواية ابن إسحاق تقول إن ملأ قريش هذا طلبوا إلى محمد معجزات وبينات أخرى ، وليس من الضرورى أن يكون هذا كله قد وقع فى هذا المجلس لأن التحدى والجدل لم يسكن قط بين محمد وخصومه خلال تلك المرحلة فقد طلبوا منه مثلاً أن يسأل ربه أن يبعث من الموت رجلاً من كبار أجدادهم مثل قصى بن كلاب «فإن كان شيخ صِدق ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك عرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول ! فقال رسول الله ﷺ ، ما بهذا بعثتُ إليكم. وإنما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أُرسِلْت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عَلَىَّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ... »[1] .

وهذا الكلام من رسول الله وضع نهاية للحديث ، لأنه لم يأتهم بما طلبوا منه فهو إذن بمنطقهم الوثنى ليس بنبى . فهو كما قالوا لا يفضلهم فى شىء ، فهو يقوم بالأسواق كما يقومون ويلتمس المعاش كما يلتمسون ، فكيف يعرفون منزلته من ربه إن كان رسولاً كما يزعم ؟ ويقوم محمد آسفاً فيتبعه عبد الله بن أمية بن المغيرة بن خلف الجمحى وهو من أترابه فى السن ويقول له إن قومه أنصفوه فلم ينصفهم ، وطلبوا إليه أن يأتيهم ببينة على أنه نبى فلم يأتهم وهم لهذا لن يصدقوه أبداً وهذا فصل الخطاب بينهم، وقد قال هذا الكلام لرسول الله فى لهجة بالغة الكراهة والحقد كأن قلبه كان بالفعل يتلظى غيظاً من محمد وكراهة له ، ولو أنه أتاهم بكل معجزات الدنيا لما صدَّقوا.

وانتهى كل حوار بين محمد ﷺ وخصومه ، فقد أيقنوا - فيما بدا لهم - أنهم على حق فى رفضهم دعوته وإبائهم الدخول فيها ، ولم يبق بعد هذا إلا الخصومة الصريحة والعداء فى غير هوادة.

---

(١) انظر خبر ابن إسحاق كله عند ابن هشام . السيرة ١/ ٣١٥ وما بعدها .

والمتأمل لكل هذا الحوار الطويل الذى تم على أربع مراحل ولابد أنه استغرق شهوراً يرى أن أولئك المكيين كانوا بالفعل جبهة واحدة فيما يتصل بالدفاع عن مصالحهم .

وهم يتصرفون فى عقل وروية وفى نظام أيضاً ، فهم يجتهدون فى تلافى الصراع الصريح بالحوار والأخذ والرد ، وهم ينتقلون من مرحلة من مراحل الحوار إلى الأخرى انتقالاً منطقياً متمسكين برأيهم مثابرين عليه كأنهم رجال دولة يدافعون عن مصالحهم . وفى أثناء كلامهم مع محمد ﷺ كان اضطهادهم للأصاغر والمستضعفين من أصحابه مستمراً ، وهم بهذا يمارسون ضغطاً على محمد حتى يلين معهم ، وأهل الصَّغار والحمق منهم وفيهم رجال مثل عقبة بن أبى معيط والأسود بن عبد يغوث يؤذون النبى بدنىء الأفاعيل من مثل إلقاء الوقر أمام بيته أو إلقاء سلاء الشاة عليه وهو يصلى فى حين أن المستهزئين من أمثال النضر بن الحارث بن كلدة يستهزئون به ويمسك النضر بعظم بالٍ ويفركه ويقول ساخراً : يزعم محمد أن ربه يحيى العظام وهى رميم ، وكل هذه أساليب من الضغط والتيئيس والتهوين لا تخفى أهميتها وآثارها على رجل غير محمد .

فكأن قريشاً جندت كل قواها لمحاربة هذه الدعوة التى رفضتها تماماً ، وهى فى هذا تعطينا مثالاً من ظاهرة الرفض الاجتماعى Social rejection وهى رفض المجتمع لكل ما تحس أنه غريب عليها ضار بنسيجه ، وليس من الضرورى أن يرفض الجسم ما يضره مما يحس أنه غريب عن كيانه فقط بل هو يرفض ما ينفعه أيضاً ، كما يرفض الجسم الكلية السليمة التى تُزرع فيه ويهاجمها ويقتلها وفيها حياته . وهذا ما كانت قريش تفعله الآن : كانت تهاجم الإسلام وتلفظه وهو حياة لها، ولكن الإسلام فى نفس الوقت كان لا يقنع بأقل من تغيير نظامها كله وعقليتها كلها ويبنى مكان ذلك نظاماً جديداً وعقلية جديدة . وهذا كان عند القرشيين مستحيل القبول .

حصَار بنى هَاشِم وَبَنى المطّلب فى الشّعب :

يئست قريش إذن من التأثير على محمد ﷺ وكفِّه عما كان سادراً فيه بالمناقشة فلم يبق أمامها إلا العنف . وقد لاحظنا أن أهم ما كانت تحرص عليه قريش هو ألا

يتصدع بنيانها بحرب دامية بين بنى هاشم وأنصارهم وهم المطيبون وبقية قريش ، ولهذا فقد رأوا أن خطوة جديدة هى دون الحرب ولكنها خطوة خطيرة : مقاطعة بنى هاشم ومحاصرتهم فى شِعْبهم أى حَيِّهم .

فقد اجتمع رؤساء قريش فى ناديهم وقرروا حصر بنى هاشم وبنى المطلب فى شِعْبهم أى حيهم من مكة ، وقرروا مقاطعتهم اجتماعياً واقتصادياً ، وقاموا هم بأنفسهم بتنفيذ ذلك القرار ، ونفذوه بالفعل بإحكام وفاعلية هما أقوى وأفعل من المحاكمة والسجن والبطش ، والخبر مشهور نعرفه برواية ابن إسحاق ولكن ابن سيد الناس فى (عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسِّير) يرويه بصورة أكمل برواية ابن إسحاق وموسى بن عقبة معاً[1]، قال :

١- ثم إن كفار قريش أجمعوا أمرهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله ﷺ وقالوا : قد أفسد أبناءنا ونساءنا فقالوا لقومه : خذوا منا دية مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش أو تريحوننا وتريحون أنفسكم ، فأبى قومه بنو هاشم ذلك ، فظاهرهم بنو عبد المطلب بن هاشم .

٢- فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم ، وإخراجهم من مكة إلى الشِّعْب .

٣- فلما دخلوا إلى الشعب أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة . وكان (كذا) متجراً لقريش فكان يثنى على النجاشى بأنه لا يُظلم عنده أحد .

فانطلق إليها عامة من آمن بالله ورسوله .

٤- ودخل بنو هاشم وبنو المطلب شِعْبهم مؤمنهم وكافرهم ، فالمؤمن ديناً ، والكافر حمية .

٥- فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه أجمعوا على ألا يبايعوهم ، ولا

(١) كان محمد بن إسحاق بن يسار المسيبى المطلبى يرى نفسه أصدق رواة السيرة ويقول : أنا بيطار السيرة ولكن مالك بن أنس ومن تبعه من الفقهاء كذبوه واتهموه بالتدليس وقالوا إن موسى بن عقبة هوشيخ المغازى . أما ابن سيد الناس فهو فقيه أندلسى الأصل مصرى المولد و السكن والحياة واسمه محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس . توفى فى القاهرة سنة ٧٣٤ هجرية وهو من أعاظم علماء القرن الثامن الهجرى فى العالم الإسلامى كله .

يُدْخِلوا إليهم شيئاً من الرَّفق ، وقطعوا عنهم الأسواق ، ولم يتركوا لا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم .

٦- ولا يناكحوهم .

٧- ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل .

٨- وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها على الكعبة .

٩- وتمادوا على العمل بما فيها من ذلك ثلاث سنين .

١٠- فاشتد البلاء على بنى هاشم فى شِعْبهم وعلى كل من معهم .

١١ - فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم قوم من قصى مِمَّن ولدتهم بنو هاشم ومن سواهم ، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة (منه) .

١٢- وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فأكلت ولحست ما فى الصحيفة من ميثاق وعهد .

١٣- وكان أبو طالب فى طول مدتهم فى الشِّعْب يأتى رسول الله ﷺ فيأتى فراشه كل ليلة حتى يراه كل من أراد به شراً أو غائلة ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتى بعض فرشهم فيرقد عليها .

١٤- فلم يزالوا فى الشِّعْب على ذلك إلى تمام ثلاث سنين .

١٥- ولم تترك الأرضة فى الصحيفة اسماً لله عز وجل إلا لحسته ، وبقى ما فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم .

١٦- فأطلع الله رسوله على ذلك ، فذكر رسول الله ﷺذلك لأبى طالب ، فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبتنى .

١٧- فانطلق فى عصابة من بنى عبد المطلب حتى أتوا المسجد وهم خائفون لقريش .

١٨- فلما رأتهم قريش فى جماعة أنكروا ذلك ، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ برمته إلى قريش .

١٩- فتكلم أبو طالب فقال : قد جرت أمور بيننا وبينكم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التى فيها مواقفكم فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح .

٢٠- وإنما قال ذلك أبو طالب خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها .

٢١- فأتوا بصحيفتهم معجبين ، لا يشكون أن رسول الله ﷺ يُدفع إليهم فوضعوها بينهم ، وقالوا لأبى طالب : قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم .

٢٢- فقال أبو طالب : إنما أتيتكم فى أمر هو نَصَفٌ بيننا وبينكم: إن ابن أخى أخبرنى - ولم يكذبنى-أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله عليها دابة فلم تترك له فيها اسماً إلا لحسته ، وتركت فيها غَدْرَكم وتظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا : فلا والله لا نموت حتى نسلمه من عند آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم .

٢٣- فقالوا : قد رضينا بالذى تقول . ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق والمصدوق ﷺ قد أَخْبَر بخَبَرِها قبل أن تُفتَح .

٢٤- فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبو طالب عن النبى ﷺ قالوا : هذا سحر ابن أخيك . وزادهم ذلك بغياً وعدواناً » .

وتلى هذا الخبر رواية أخرى للجزء الأخير منها لا يختلف عما أوردناه إلا فى قليل . وإنما أوردت هذا الخبر مقسماً إلى فقرات ليسهل علينا تحليله واستخراج كل ما فيه من الحقائق والمعانى التاريخية . وهذا التقسيم فى ذاته جزء من التحليل أو هو الخطوة الأولى منه . والنصوص التى بين أيدينا مادة خامة - وقدرة المؤرخ تتبين من قدر ما يستخرج منها من الحقائق بعد أن يستوثق من أنها نصوص صحيحة تحتوى على مادة علمية يمكن الإفادة منها .

وأهم ما يعنينا فى دراسة هذه الفقرات هو أن نعرف الطريقة التى كان نظام قريش

يعمل بها أو ما يسمى بميكانيكية النظام أو ما يسمى باسم System Mechanism وكيف أن هذا النظام الذى يبدو لنا من أسماء وظائفه مثل الرفادة والسقاية واللواء أنه نظام شكلى أو ما يسمى فى الانجليزية باسم decorum وأن تلك الوظائف كانت شكلية يحوزها أصحابها للشرف والمظهر ، بل كانت وظائف أو أجهزة ذات عمل حقيقى functional . حقاً إنها لم تكن وظائف بمعنى الكلمة ولكنها كانت أجهزة Organisms تقوم بعملها بفاعلية حقيقية ، وهدفها الأخير هو حماية قريش وتمكين سلطانها على مكة ، وهو سلطان عام كما رأينا أى : أنه لا يتركز فى أشخاص معينين ، بل فى أن أهل مكة كلهم مشتركون فيه مسارعون إلى تنفيذه بأسلوب قبلى لا إدارى ، فالناس هنا يعملون لحماية كيانهم الفردى والجماعى طواعية وعن إحساس بأنهم يخدمون أنفسهم لا سادة قريش فحسب ، فإذا أخطأ واحد منهم أو قصَّر حوسب على تقصيره أو إهماله أو مخالفته .

وسنرى فى النهاية أنه لم يكن نظاماً جامداً خالياً من النوازع الإنسانيـة ، لأن قريشاً كانت مترابطـة الأوشاج والأرحام ، وكانت علاقات الصهر شاملة متشابكة لا دخل فيها لطبقية أو تفاضل ، فقريش يصاهر أفخاذها بعضها بعضاً دون حرج ، والقرشيون يصاهرون غير القرشيين دون شكليات ، والجار يصاهر المجير والسيد يتزوج الأمة ، وسنرى مصاديق ذلك بعد تحليلنا لهذا النص الطويل الحافل بالمعانى والحقائق التاريخية وقد تعوَّد الناس أن يمروا به مسرعين ناظرين إلى نهايته أى إلى انفراج أزمة المسلمين ونهاية الحصار .

وهذه النظرة الأخيرة لا تعين على إدراك قوة الإسلام وما وضعه الله سبحانه فيه من الحيوية والفضائل بحيث استطاع أن يقوض دعائم نظام قوى متماسك مثل النظام المكى القرشى ، وما تميز به رسول الله ﷺ من خلال وشمائل وعقل راجح وخلق متين وعزيمة تزلزل الجبال ، فهذا الرجل - رسول الله ﷺ أقصد - وقف معظم هذه الفترة وحده تقريباً أمام هذا النظام المتأصل ، يحمل القرآن العظيم والإيمان الثابت فى قلبه ويعمل فى صبر ودأب على إزاحة هذه الصخرة من طريقه دون أن يحطمها ، لأنه ﷺ كان يعرف قدر القرشيين وما يمكن أن يقدموه من الخدمات للإسلام ، وكان يدرك

حقيقة كبرى غابت عن معظم مؤرخينا القدامى والمحدثين أيضاً ، وهى أن ذلك النظام الذى كان الإسلام يواجهه كان يقوم على رجال لا على وظائف ، فالرفادة هنا ليست وظيفة الرفادة ، بل هى شخصية من يقوم بها ، وكذلك السقاية واللواء ، فالقوة الحقيقية فى هذا التنظيم كانت فى رجاله وصواب اختيار الناس لهم اعتماداً على ما يعرفون من مواهبهم .

ويكفى أن نلاحظ أن رسول الله ﷺ احتفظ لأصحاب هذه الوظائف - بما لا يتعارض مع الإسلام - بوظائفهم حتى بعد إسلامهم ، فهو فى صراعه مع قريش بعد الهجرة يحتفظ لبنى عبد الدار باللواء ، ففى موقعة بدر كان حامل لواء المسلمين من بنى عبد الدار ، ويبدو أن رسول الله قد أخذ عليهم يومذاك شيئاً ، فلما كان يوم أُحُد أراد أن يعطى اللواء لغيرهم فغضبوا وتمسكوا بهذه الوظيفة تمسكاً شديداً ، فسلم لهم الرسول بحقهم وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، ومن غريب ما نلاحظ أن حامل اللواء فى معسكر المشركين يوم أحد كان من بنى عبد الدار أيضاً ، وكذلك كان فيهم لواء المسلمين ، مما يدل على أن اللواء لم يكن مجرد شىء شرفى ، بل وظيفة حقيقية لها دورها فى تنظيم قريش ، ودورها يعتمد على أصحابها ، لأن النظام المكى كان نظام رجال ، لا نظام وظائف كما قلنا ، فالوظيفة بالرجل لا الرجل بالوظيفة .

ومما يدل على عمق نظرة الرسول ﷺ أنه بعد أن عاد من معركة بدر ودخل المدينة ظافراً سمع سلمة بن سلامة بن وقش يقلل من أهمية النصر العظيم ويقول فى سذاجة: إن لقينا إلا رجالاً صُلْعاً ! . فقال له رسول الله ﷺ : يا ابن أخى ، أولئك هم « أعلى » أى أولئك هم الرؤوس المفكرة المدبرة ، أولئك هم مستقر القوة القرشية بل هم القوة نفسها ، وبالفعل لقد كانت معركة بدر معركة أولئك الرجال ، وكان القرشيون يدركون ذلك تماماً ، فالدور الثالث كله من معركة بدر كان معركة أبى جهل ، وقد أدرك المخزوميون ذلك فقاموا دون ذلك الرجل يدفعون عنه وكأن « بيضتهم » حتى قتل منهم أكثر من سبعة عشر رجلاً قبل أن يصل المسلمون إليه ويقضوا عليه .

ولم تغب هذه الحقيقة عن المسلمين قط ، فقد كان كل منهم يريد قتل أبى جهل

حتى إننا لا نعرف فى النهاية من الذى قتله منهم ، فإذا قلتَ إن أبا جهل لم يقتله فلان أو فلان بل قتله الإسلام لم تَعْدُ الحقيقة ، وبالفعل كان مصرع أبى جهل هو مصرع العصر الجاهلى كله ، فلم يكن أبو جهل مجرد رجل ، بل كان رمزاً لنظام أو روحاً له ، فلما قُتِل انتهى النظام كله .

وهذا يبين لنا جانباً من جوانب عبقرية الإسلام وعبقرية محمد معاً ، فإن الإسلام بتنظيمه الاجتماعى وقوامه القانونى وتركيزه على الفضائل الإسلامية والقوى الكبرى التى أودعها الله فيه هو الذى هدم النظام القرشى كله . ومعركة الإسلام مع النظام الجاهلى كانت أعنف وأطول مدى من معركته مع نظامى الروم والفرس ، لأن نظم الفرس والروم كانت تقوم على وظائف يملؤها رئيس الدولة ، وفى عصور تدهور النظم يجرى شغل الوظائف على أساس الهوى أو القرابة أو الوراثة أو ربما الرُّشى ، فيضعف النظام كله رغم ضخامة هيكله ، ولا يصمد فى الدفاع عنه إلا أصحابه والمفيدون منه ، وما أقلهم فى عصور التدهور .

أما النظام المكى القرشى فكان نظاماً جماعياً يفيد منه معظم أفراد القبيلة . ومعظم خصومه كانوا من نزلاء مكة والطارئين عليها والملحقين بالقرشيين ما بين عبد وحليف أو أسير أو تاجر ضعيف . ولهذا طالت المعركة ، وكلما زاد ضغط الإسلام زاد إحساس قريش بالخطر وزاد تماسكها ، وانتهى الأمر قبيل خروج الرسول ﷺ إلى الطائف إلى تجمد النظام القرشى فى مكانه بدافع الخوف . وهنا أدرك الرسول أنه لم تعد هناك فائدة تُرجى من ذلك النظام ، لأن الخوف يشل التفكير ، والحقد يوقف الذهن عن التصرف .

وهذا هو الذى عناه الله سبحانه وتعالى بآيات بينات مثل قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾** ﴾ [الكهف] و ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾** ﴾ [الإسراء] فهذه صورة أناس شلَّ الخوف قواهم الفكرية فوقفوا مذعورين متماسكين :﴿ **وَقَالُوا : قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا**

تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت] أى : أننا لن نغير من موقفنا هذا مهما فعلت ، وكان كل ما بقى لهم أن يقولوه للرد على القرآن ورسول الله أن تصوروا أنه ساحر أو مسحور : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] وفى سورة المدثر آيات تصور هذا الموقف ببلاغة يعجز عنها الوصف ، وذلك حين يقول الله سبحانه : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [المدثر] .

والقسورة - أى الأسد - هنا هو الإسلام .

وعسى من يحسب أن فى هذا الكلام زيادة لقدر القرشيين أعداء الإسلام ، وليس أبعد عن الصواب من هذا الظن ، فإننا عندما نقلل من أهمية القرشيين ونجعلهم جماعة من الحمقى ، فإننا فى نفس الوقت نقلل من قيمة نصر الإسلام وتفوق محمد ﷺ عليهم ، وما قيمة التغلب على خصم حقير لا يساوى شيئاً ؟ حقاً إن الرجل بأنصاره ، ولكن الرجل أيضاً بخصومه ، وما جعل الناس بعيدين عن إدراك قدر الفترة المكية من حياة الرسول - صلوات الله عليه - إلا مثل هذا التصوير البعيد عن الحقيقة ، فما معنى هذا الدأب على محاورة نفر من الأغبياء والحمقى ؟

لقد ظل رسول الله ﷺ يشد عليهم وحده حتى ضاقت عليهم الأرض ، وأوقع فى قلوبهم بشخصيته وخلقه وتصرفه هيبة كبرى ، وتلك الهيبة هى الحماية التى أضفاها الله على رسوله فلم يجرؤ خصومه عليه ، أو هل تحسب أنهم لم يقتلوه خوفاً من أبى طالب وبنى هاشم ؟ إن أقصى ما كان عليهم أن يؤدوه إذا هم عدوا عليه هى الدية أو الدية المضاعفة وقد عرضوها فعلاً ، وما كان بنو هاشم وبنو عبد المطلب وأنصارهم بقادرين على الثبات لخصومهم الأقوياء طويلاً ، ومهما كان الأمر فقد كانوا سيقبلون الدية مهما حاربوا . كان ذلك واضحاً فى كل مراحل الصراع ، فما الذى أوقفهم عن أن يُقْدِموا على تلك الجناية ؟ هيبة محمد ورسالته فى قلوبهم .

حقاً إن الله عصمه من الناس ، ولكنه عصمه بالهيبة التى كانت له فى النفوس ، وهى جانب من عصمة الله إياه ، مرة أخرى نرى أنهم كانوا حمراً مستنفرة فرت من

قسورة ، والقسورة هنا هذه المرة هو رسول الله ﷺ الذى أوتى من الشجاعة والثقة فى الله وفى نفسه ما جعله يظل رابضاً فى مواجهة أولئك القوم يطاردهم فعلاً ، حقاً لقد قال الله سبحانه وتعالى له : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] ولم يكن هو يشك فى أن الله سبحانه عاصمه ، ولكن إليك خبراً يسوقه ابن كثير يوضح لك جانباً من معنى هذه العصمة ، فقد كان رسول الله لا ييأس أبداً من استجابة المكيين لما كان يدعو إليه . كان أبو جهل يتجنب لقاءه وهو يلاحقه طمعاً فى هدايته وقبل الهجرة بقليل لقى أبا جهل فقال له : أما آن لك أن تشهد ألا إله إلا الله وأنّى رسول الله ؟ فردَّ عليه أبو جهل قائلاً: « أما تريد أن تقول إنك بَلَّغْت . فقد بلغت !»

وهذه مقالة رجل يريد أن يتخلص من موقف يشعر فيه بضعف أو حرج ، فهو لا يكابر ولا يناقش ولا يعنف ، وإنما يريد أن يتخلص ، إنه حمار مستنفر يفر من قسورة . وقد عبَّر ابن إسحاق عن هذه الهيبة المحمدية تعبيراً بليغاً حين قال : «وقد كان عدو الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله ﷺ وبغضه إياه وشدته عليه يذله الله إذا رآه» (١) .

ونعود إلى تحليل رواية ابن إسحاق عن حصار قريش لبنى هاشم وبنى عبد المطلب فى شِعْبهم ومقاطعتهم إياهم .

ففى الفقرة الأولى نرى القرشيين من أعداء الإسلام يعرضون على بنى هاشم اقتراحاً يرون أنه معقول من وجهة النظر الجاهلية ، وهى أن يوعزوا إلى رجل غير قرشى بقتل رسول الله ﷺ حتى لا تكون هناك عداوات وثارات ، وفى نفس الوقت يقومون هم بدفع الدية إلى بنى هاشم ، وهم براء منهم أو منهم الدم .

ولم يكن من الممكن أن يقبل أبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب معه اقتراحاً مثل هذا ، لأن معناه أنهم يبيعون رجلاً من أبناء قبيلتهم بطريقة خسيسة مهينة ، ثم إن بنى هاشم وبنى عبد المطلب أدركوا أهمية الدعوة المحمدية بالنسبة لهم ، وخاصة أولئك الذين لم يؤمنوا ، فقد تصوروا كما قلنا أن تلك الدعوة تعيد إليهم هيبتهم ومكانتهم ،

(١) ابن إسحاق برواية ابن هشام ، جـ ١ ص ٣٨٨ .

ومن ثم فإنهم لم يكونوا مستعدين للمساومة عليه ، هذا فى حدود المنطق العادى ، ولكننا ينبغى أن ندخل هنا فى حسابنا هيبة محمد فى قومه ، وقد أشرنا إليها فيما سبق ، لقد كان أبو طالب شيخهم ، ولكن شخصية أبى طالب تضاءلت جداً أمام شخصية محمد ، فالذين آمنوا به منهم تمسكوا به لأنه رسول الله ﷺ ، والذين لم يؤمنوا تمسكوا به لأنه بدا لهم قوة كبرى تزيد قدرهم ، وقد كانت هيبته فى قلوبهم أجمعين عظيمة .

وتتحدث الفقرة الثانية عن اتفاق قريش على منابذة بنى هاشم أى حصرهم فى الشِّعْب ، ولا يظن ظان أن دخول الشِّعْب أنه كان محظوراً عليهم الخروج منه فإن منعهم من الخروج والدخول غير متصور . ولكن القرشيين كانوا يستطيعون منع غير الهاشميين وغير المطلبيين من دخول الشِّعْب ، لا بقوة حراسة أو شرطة بل باستنكار ذلك واعتباره عملاً لا ترضى عنه القبيلة . وكان لقريش من القوة المعنوية ما يمكنها من جَعْل القرشيين من غير بنى هاشم يتجنبون دخول الشِّعْب تفادياً للمتاعب . أما بنو هاشم وبنو المطلب فإن الذين يخرجون منهم من الشعب لا يجدون من يكلمهم أو يعاملهم أو يبيعهم أو يشترى منهم شيئاً ، فهم مُقَاطَعون مقاطعة فعلية ، ومن هنا فمن الطبيعى أن نجدهم يقيمون فى شِعْبهم أى حَيِّهم لا يخرجون منه .

وقد نجح الحصار فعلاً وآتت المقاطعة ثمراتها بعد شهور ، فندر الطعام فى بيوت بنى هاشم حتى جاع الأطفال والضعاف وتأذى الشيوخ ، وأسوأ من ذلك أن المقاطعة أكلت أموال بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فهؤلاء كانوا جميعاً تجاراً يعيشون من البيع والشراء . ولم يكونوا فى جملتهم من الأثرياء ذوى رؤوس الأموال الكبيرة فبان عليهم الفقر وجاع الناس حتى كان يُسْمع بكاء الأطفال ، مما يدل على أن الحصار والمقاطعة كانا محكمين أى : أن قريشاً دون شرطة أو سجون استطاعت أن تسجن جِذْمين كبيرين من أجذامها سجناً فعلياً وتكبدهم خسائر جسيمة هى أشبه بالمغارم المالية التى توقعها المحاكم على الناس ، ومعنى ذلك أن قريشاً كانت لها بالفعل سلطة تنفيذية حقيقية تستطيع بها أن تعاقب وتؤدب من تريد عقابه وتأديبه ، وإذا كان العقاب قد وقع هذه المرة بالفئة الصالحة التى كانت تريد لقريش خيراً عظيماً لم تتبينه بصائر رجالها ، فإنه لا بد أنه كان كفيلاً بحماية قريش مما يرى رجالها وملؤها أنه خطر يهددها .

وفى الفقرة الثالثة نرى حديثاً عن هجرة من بقى من المسلمين الذين خاف عليهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الحبشة ، ونظن أن المراد بذلك الهجرة الكبيرة الثانية إلى الحبشة التى ذكرها المؤرخون ، وقد تبين لنا من الدراسة أن الهجرة إلى الحبشة بدأت بعدد كبير من المسلمين بعد وقوع المواجهة الصريحة بين المسلمين والمكيين عقب خروج المسلمين من دار الأرقم بعد إسلام عمر وتحديهم لقريش بالمجاهرة بالإيمان والصلاة وقراءة القرآن فى الكعبة ، ثم استمرت فى صورة تيار صغير متصل ، فقد انفتح باب الهجرة وعرف المسلمون إلى أين يتجهون للنجاة بدينهم بعد أن أذن لهم رسول الله ﷺ فى ذلك ، ثم كانت هذه الهجرة الكبيرة الثانية عندما اشتدت المقاطعة وخاف رسول الله على من بقى من أصحابه مكشوفاً لعدوان القرشيين ، وتلك هى الموجة الثانية الكبيرة من المهاجرين إلى الحبشة ، وعددهم ٨٣ رجلاً وإحدى عشرة امرأة من قريش وسبع « غرائب » أى : غريبات عن قريش ، وقد أورد لنا ابن هشام بياناً وافياً بهن نقله عن ابن إسحاق [١] .

والفقرة الرابعة تدل على تماسك بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فقد دخلوا جميعاً الشِّعْب وتمسكوا بقومهم ، فالمؤمن منهم تمسك ديناً وغير المؤمن تمسك حمية ، ومن الممكن تعميم ذلك على بقية بطون قريش ، فإن الجانب الآخر - أقصد المشركين - وقف متماسكاً مُصراً على ما قدره من إرغام المخالفين على طاعة القبيلة والتخلى عن محمد وإسلامه ، وأغلبيتهم فعلت ذلك اقتناعاً ، والبقية نفذته اتباعاً على سبيل التمسك بالعصبية القبلية .

وفى الفقرة الخامسة نرى كيف كانت عملية الحصار والمقاطعة تتم ، فالفقرة تتحدث هنا عن تشديد قريش لإجراءات الحصر والمقاطعة ، ونرى هنا كيف فعلت قريش ذلك ، فهى لم تصدر إلى أفرادها قراراً بمقاطعة الهاشميين والمطلبيين بل تفاهم رجالها على ذلك ضمناً : قرره الملأ ونفذه الباقون ، وبدلاً من أن يحرموا التعامل مع من اعتبروهم خصومهم ، فلم تكن لديهم الأداة التنفيذية لذلك ، بل كانوا إذا أراد الهاشميون شراء شىء من الطعام والميرة (الرَّفَق) بادروا إلى شرائه من دونهم ، وإذا

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٤ وما يليها . والنويرى ، نهاية الأرب ٦/ ٢٤٣ وما بعدها .

أراد الهاشميون بيع شيء لم يجدوا من يشتريه منهم ، فركدت سوقهم وتوقف التعامل معهم ، وحرَّموا دخول الطعام إلى المحصورين لا بإيقاع عقوبة عليهم ، وإنما بتذكير من يقدم على ذلك بأنه يفعل شيئاً معادياً للجماعة ويُعَرِّضُ نفسه تبعاً لذلك للعقوبة بالمقاطعة وربما أشد .

والفقرة السادسة ترينا نوعاً آخر من أنواع العقوبات التى قررت قريش إنزالها بتلك الفئة التى اعتبرتها خارجة على نظامها مهددة لسلامتها وأمنها وسمعتها وهو إيقاف المعاهدات بين بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبين بقية قريش وسكان مكة وتلك عقوبة قاسية ومهينة ، لأنها تعتبر بنى هاشم وبنى المطلب أعداء ألداء لبقية قريش وتهينهم لأنها تعتبرهم أدنى مقاماً من بقية القبيلة ، ولا ندرى إن كانت تلك العقوبة قد نُفِّذت أم لم تنفذ ، ولكن وَقْعها لا بد أنه كان أليماً على المقاطَعِينَ على أىِّ حال .

والفقرة السابعة تبين الشروط التى وضعتها قريش لرفع هذه العقوبات القاسية عن بنى هاشم وبنى المطلب ، فهى لن تصالحهم ولن تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وهذا الشرط يبين لنا مقدار ثقة قريش فى نفسها وإصرارها على إذلال بنى هاشم وبنى المطلب إلى أقصى درك يمكن تصوره بالنسبة لبطنين رفيعى القدر فى أنفسهم مثل بنى هاشم وبنى المطلب ، ومن الواضح أن هذين الحيين ما كان من الممكن أو حتى من المتصوَّر أن يلقيا مثل هذا الهوان ، فإنهما كانا فريقين قويين لهما قوة وحسب وجلال ومكانة ، ولهذا فإن هذا الشرط من جانب قريش كان شرطاً أملاه السفه والغرور ، وما كان من الممكن أن يرضخ المحاصَرُون لهذا العَنَتِ والشطط .

والفقرة الثامنة تقرر أن قريشاً كتبت بهذا القرار أو العهد كتاباً علقوه على الكعبة ، وهذا هو الغالب ، ولا معنى لإنكار إمكانية كتابته وتعليقه فى الكعبة بحجة أن قريشاً كانت قبيلة أمية فى الغالب ، والواقع أن قريشاً كانت غالبيتها العظمى من الأميين ، فما كانت هناك حاجة لهذه الغالبية إلى أن تكتب ، ويكفى أنه كان من القرشيين من يكفيهم حاجتهم من القراءة والكتابة .

أما ما يرد فى الفقرة التاسعة من أن العمل بما فى هذه الصحيفة استمر ثلاث سنوات فجائز ، وإن كان الأقرب إلى المنطق وحساب توقيت الفترة المكية أن مدتها كانت سنتين كما ورد فى بعض الروايات .

والفقرة العاشرة تقرر أن البلاء اشتد على بنى هاشم ومن كان معهم فى شِعْبهم ، أى : أن سلاح الحصر والمقاطعة بلغ ذروة تأثيره وسريانه .

وإنه لمما يدعو إلى التأمل كيف أن قريشاً استطاعت دون عنف ودون وجود قوة تنفيذية ظاهرة من أن تُنزِل عقاباً شديداً بجماعتين من جماعات قريش القوية هما بنو هاشم وبنو المطلب ، فقد نال الجماعتين أذى شديد ، وأثبتت العقوبة فاعليتها ، فإلى جانب ما ذكرناه من أسباب الجماعتين من فقر ومقاطعة كاملة توقف دخول الناس فى الإسلام خوفاً من أن يصيبهم ما أصاب من لا يرضى عنهم ملأ قريش ، ومع أن المحَاصَرين والمقاطَعين لم يكونوا سجناء فى حَيِّهم فقد كانوا يستطيعون الخروج والدخول إلا أنهم إذا خرجوا لم يجدوا من يبيعهم أو يشترى منهم أو حتى يكلمهم مما أدى بهم فى النهاية إلى لزوم شِعْبهم والشِّعْب هو الحى كما قلنا . وهذا يدل على أن سلطان قريش فى مكة لم يكن مجرد رمز ، وهذه حقيقة ينبغى أن ننبه عليها .

وهنا يتحرك عصب آخر من عصبات تكوين قريش ويبدأ فى العمل ، فقريش لم تكن دولة وإنما هى قبيلة ، والقبيلة تكوين اجتماعى أولاً وسياسى ثانياً ، وروابط القرابة بين الأفراد ووشائج الرحم والصهر بينهم هى أساس تكوينه وقوته ، فالناس يعملون فيه بالولاء للقبيلة فى مجموعها أولاً أو فى اتجاه الخارج ، ثم بعواطف القرابة والولاء للعواطف والعلاقات الفردية ثانياً ونحو الداخل . وهذا الولاء هو فى نفس الوقت الولاء للقبيلة وهما أساس قوتها كوحدة سياسية واجتماعية ، والقرار الذى اتخذته قريش حيال بنى هاشم وبنى المطلب قرار سياسى يتعارض أساساً مع العواطف القبلية العصبية الفردية أى : أنه يتعارض مع التكوين الداخلى للقبيلة وتنظيمها .

ثم إنه كان قراراً ضد اثنين من أكبر البطون المكوِّنة لقريش ، هما بنو هاشم وبنو المطلب ، وعلاقات الصهر والقرابة بين هذين البيتين وبقية بيوت قريش كانت وثيقة

فأم محمد ﷺ من بنى زهرة كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وزوجته أم المؤمنين خديجة من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وحمزة بن عبد المطلب وهو أخ أصغر لأبى طالب كان ابناً لابنة عم آمنة وهى هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعمر ابن الخطاب هو ابن حنتمة بنت مقبل من بنى عدى بن كعب بن لؤى ، وهو أخو فاطمة زوج سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى من بنى كعب بن لؤى ، وأبو سلمة بن عبد الأسد كان ابن عم لأبى جهل ، فهو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة ، وأبو جهل هو أبو الحكم عمرو بن هشام ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ، وعثمان بن عفان هو ابن أبى العاصى بن أمية الأكبر بن عبد شمس ، فهو ابن عم لأبى سفيان بن حرب . والأرقم بن أبى الأرقم كان ابن عم لأبى جهل ، يجتمع نسبهما فى عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهكذا . فلم يكن أحد من أولئك المحصورين المقاطَعين إلا قريباً لواحد أو أكثر من المقاطِعين المحاصرين .

وكان طبيعياً والحالة هذه أن يتحرك نفر من القرشيين لعون بنى هاشم وبنى المطلب وأقاربهم من المحصورين بشىء من الطعام ، وكان أكثر الناس إقداماً على ذلك هشام بن عمرو بن الحارث العامرى وكان قريباً لخديجة ، فقد كان يغافل قريشاً ويُدخِل أحمال الطعام إلى بنى هاشم فى الشِّعب ، فعرف القرشيون ذلك وكلَّموه فيه ، وكان قد حمل فى ليلة واحدة ثلاثة أحمال طعاماً ، فلما كلموه فى الصباح قال : إنى غير عائد إلى شىء خالفكم ! ثم عاد يغافل قريشاً حتى حمل إلى المحصورين فى ليلة حملاً أو حملين من الطعام ، يريد القمح فغالظوه وهموا به فتدخل أبو سفيان وقال : دعوه ، رجل وصل رحمه ، أما والله إنى أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن .

وجرؤ على تخطِّى قرار المقاطعة - بدافع الرحم - حكيم بن حزام . وكان ابن أخ لخديجة فهى عمته ، فحمل إليها فى الليل طعاماً ، فعاتبه فى ذلك أبو جهل ، فتدخل أبو البخترى العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم لخديجة ، وقال لأبى جهل : طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خَلِّ عن الرجل.

فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ البخترى لحى بعير ، فضربه به فشَجَّه ، ووطئه وَطْئاً شديداً (١).

وشيئاً فشيئاً ، بدأ القرشيون من ذوى المروءة والإحساس الإنسانى يتحركون لإيقاف هذا العقاب الأليم لنفر من أبنائهم وبناتهم وأبناء عمومتهم بسبب متابعتهم لمحمد رسول الله على ما كان يدعو إليه ، وكان أكبر المتحمسين لذلك المطعم بن عدى وكان كذلك قريباً لخديجة ، وأبو البخترى العاص بن هشام الذى ذكرناه ، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى ، وزمعة بن الأسود بن المطلب وهو ابن عم لرسول الله ﷺ وكان عضواً ظاهراً من بيت المطلب بن عبد مناف المحاصَر المقاطَع .

وهنا يأتى تعليقنا على الفقرات الحادية عشرة وما يليها ، وكلها تتعلق بنقض الصحيفة فيما عدا الفقرة الثالثة عشرة التى تدور حول خوف أبى طالب على ابن أخيه محمد من أن يناله أذى أثناء الحصار ، فكان يطلب إليه أن يغير مكان نومه كل ليلة ، وهو خوف مفهوم ، لأن محمداً ﷺ قد أصبح بدعوته فخر بنى هاشم ورمز عزتها ، فمن آمن به من بنى هاشم كان يتبعه ويصدقه فيما قال ويعتبر نفسه من رجاله ، ومن لم يؤمن به بَعْدُ منهم كان يتحمس له حَمِيَّة واعتزازاً بالقرابة والعصبية ، ولا شك فى أن أبا طالب كان يحرص على سلامة محمد بدافع العصبية أولاً ، ثم بدافع من الإحساس بأهمية ما كان يدعو إليه ابن أخيه بعد ذلك ، فهؤلاء عددٌ كبير من بنى هاشم رجالاً ونساءً يؤمنون به ، ثم إن الدعوة فى ذاتها أعطت بنى هاشم أهمية كبرى بعد أن أخملهم غيرهم بعد موت عبد المطلب ، وقد سبق أن قلنا : إن تحمس أبى طالب لمحمد كان تحمساً عصبياً سياسياً ، فهو لم يؤمن بالإسلام وهو مَسَّ قلبه ، ولكنه ظن أن الدعوة الإسلامية طريق لبنى هاشم للانتصاف من خصومه واستعادة مكانتهم .

ويروى ابن سيد الناس خبر نقض الصحيفة فى أسلوب له طعم القصص ، وقد مهدنا لنقض الصحيفة تمهيداً تاريخياً منطقياً بعيداً عن حديث الأرَضَة وأكلها لكل شىء كتبته قريش فى الصحيفة إلا اسم الله سبحانه وتعالى أو أكلها لاسم الله سبحانه

(١) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ١/ ١٣٠ . والخبر هنا عن محمد بن إسحاق برواية أبى عمر بن عبد البر النمرى بسند متين يختلف عن سند البكائى فى روايته لنص ابن إسحاق ، وهى الرواية السائدة عند الناس ، وهى التى اعتمد عليها ابن هشام .

وتعالى ؛ لأننا فى معرض التاريخ الصرف لا نحتاج إلى هذا القصص ، ولكننا لا نرى إنكار هذه الأخبار التى تعطى لبعض فقرات السيرة طابع المعجزات أو تصورها بصورة خارجة عن المألوف ، ولا ضير على من يريد أن يرددها فهى على أى حال لا تدخل فى صميم التاريخ .

ثم إننا هنا نتحدث عن نبوة ورسالة وسيرة نبى مرسل كريم اختصه الله برسالته السماوية ، والإيمان بها عقل وعاطفة ، وليس من الضرورى إذن أن نستبعد الأخبار الصادرة عن فيض العاطفة وإن كانت قصصية الطابع ، والقصص الذى يصدر عن العاطفة الصادقة مثل هذا الخبر يضيف إلى التاريخ عنصراً عاطفياً إنسانياً لا غنى له عنه ، فمن أراد أن يأخذ بحديث الأرَضَة ودورها فى نقض الصحيفة فهو وذاك . وأنا أجد فى هذا الحديث وأمثاله طلاوة وتعبيراً عن عاطفة كريمة . وأنا إذ أقول ذلك لا أنكره ولكنى أقول : إن السياق التاريخى للحوادث لا يحتاج إليه دون أن يشكك فيه من يريدون الأخذ به . ولا محل للتشكك فى تفاصيل تتصل بالنبوة ، ومقامها عندنا وعند غالبية المسلمين وإنكارها على أساس أنها لا تجرى مع المنطق إنكار لامعنى له . وما بال أقوام يقرأون خبر شَقِّ صدر النبى وتطهيره على يد مَلَكين مثلاً فينكرونه ويحتكمون فيه إلى المنطق مع أن التسليم بذلك لا يخرج فى طبيعته ومعناه ومغزاه عن التسليم بنزول الوحى ، وحديث جبريل وإقرائه القرآن .

إن أصحابنا هنا ينسون أن الموضوع كله يتعلق برسالة سماوية وبرسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة وقرآن كريم لا يشك مؤمن فى أنه كلام الله سبحانه الذى تنزَّل على محمد صلوات الله عليه بالصورة التى وصفها لنا ﷺ دون أن يكون لدينا دليل على ذلك إلا إيماننا برسول الله ﷺ وصدقه وأمانته وتبيُّننا من النظر فى القرآن الكريم وتأمل آياته وما فيها من الحق والحكمة والإعجاز والخير العميم للبشر أجمعين . هذا مع علمنا بأننا إذا أنكرنا الوحى والرسالة وألوهية القرآن فقد خرجنا عن نطاق الإيمان جملة ولم يعد لنا سبيل إلى الكلام فى الإسلام والرسالة والرسول .

أما حديث شق الصدر وتطهير القلب فهو تأكيد أن الله اصطفى محمداً وطهره قبل أن ينزل عليه الرسالة ، فإذا كانت الأحاديث الصحيحة المسندة ترينا كيف طهر الله

نبيه بشقِّ صدره على يد ملكين وإخراج الشر من صدره ، فما وجه العجب فى ذلك ؟ ولماذا نستنكر أن يكون تطهير الله لنبيه عليه الصلاة والسلام قد تم على الصورة التى تُجمع عليها الأحاديث الصحيحة التى رواها البخارى ومسلم وبقية أصحاب الصحاح والمسانيد وأصحاب كتب السنن . وقد روينا أخبار نقض الصحيفة رواية تاريخية منطقية ، فإذا أراد بعض مؤرخى السيرة أن يضيفوا إلى ذلك حديث القلب والعاطفة والقصص ، فأىُّ بأس فى ذلك ؟!

إن من أجمل خصائص سيرة المصطفى ﷺ أن رسول الله لم يعتمد فى إدخال الناس فى الدين على معجزات أو كرامات مع تيسرُّ إجرائها على يديه إذا شاء ذلك رب العالمين ، والقرآن نفسه يؤكد ذلك مرة بعد أخرى ، لأن المعجزة أو الكرامة قد تذهل من يراها وتدفعه إلى التسليم دفعاً ، فماذا يكون الحال مع من لم يروا وقوع المعجزة ؟ وماذا يكون حال الأجيال التالية لمن لم يروا المعجزة أو الكرامة ؟ هنا تقول المسيحية الكاثوليكية باستمرار المعجزات والكرامات بعد عيسى صلوات الله عليه ، ومن هنا جاءت ظاهرة القديسين عندهم ، وهى ظاهرة برَّأ الله الإسلامَ منها وحماه بها اكتفاء بمعجزة واحدة كبرى هى القرآن الثابت المتواتر بصحة وسلامة إلى يومنا هذا ، فمن لم يؤمن بإعجاز القرآن الخارق فهو لن يؤمن بأى شىء آخر ، فأىُّ فعل خارق يعدل القرآن فى القوة والإقناع ؟ وكل معجزة قام بها نبى قبل محمد هى أدنى بكثير من معجزة القرآن نفسه ، بما فى ذلك إحياء الموتى وشفاء المرضى وما إلى ذلك وتحوُّل العصا إلى حية وجَمْع أشلاء الطير الممزق وبعثه حياً بإذن الله مما يحدثنا القرآن به عن غير محمد ﷺ من الأنبياء والمرسلين ، وفى القرآن فى ذلك آيات بينات ، لعل أقربها إلى الذهن قوله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ

لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء].

فهنا نرى كيف كان القرشيون يتحدَّوْن محمداً ﷺ طالبين إليه أن يأتيهم بمعجزة لكى يصدقوه، وهم يشتطون فى مطالبهم، بل ينصون على نوع المعجزة التى يطلبونها حتى يطلبوا إليه أن يرقى إلى السماء، وحتى لو رقى إلى السماء أمام أعينهم فهم لن يصدقوه حتى ينزل إليهم بكتاب من السماء يقرأونه، ويكون رد القرآن على هذا التحدى كله إعجازاً فى ذاته، فهو يأمر محمداً بأن يقول لهم ذلك القول الذى يعتبر وحده معجزة محمدية ينفرد بها الإسلام: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء] فما هو بصانع معجزات، وإنما هو نبى، لأن معجزته الكبرى هى هذا القرآن.

ولهذا فقد بدأت الآيات بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء] أى: معيناً وهو لهذا معجزة مستمرة الحدوث والتأثير يتبينها الإنسان كلما قرأ القرآن، ومن هنا فلا حاجة لمحمد إلى معجزة أخرى. وهذا كله لا يمنع من القول بأن من يريد أن يُدْخِل المعجزات فى صميم السيرة فهو وما يريد، ومذهبه فى هذا لا يتعارض مع صميم المنهج التاريخى.

إن الأمر هنا يتعلق بنبوة ورسالة، فالتصديق بها يكون بالإيمان أولاً ثم بالمنطق، وفى الآيات السابقات نرى مثالاً لذلك. فالقرآن هنا يقول لمحمد صلوات الله عليه أن يرد على المُتَحَدِّين له بأنه بشر رسول، فإذا لم يؤمنوا بالرسالة اعتماداً على ما يرون من إعجاز القرآن وصدق الرسول فلا معنى لإقناعهم بإجراء معجزة، وعبارة: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء] فيها بلاغ، فمن صدقه فى قوله هذا فقد آمن، وبدون هذا التصديق فلا إيمان، وما دمنا قد صدَّقنا بالرسالة والوحى فهذا هو المهم والأساس، والبخارى ومسلم عندما يرويان حديث شق الصدر فهما يصدران فى تصديقه عن إيمانهما بصحة الرسالة، ونحن نروى السيرة النبوية دون حاجة إلى الاستشهاد بمعجزات.

وليس من الضرورى فى هذه الحالة أن نقول : إن شق الصدر مستحيل ، لأن شق الصدر وإخراج العلقة للتطهير لا يختلف فى طبيعته عن نزول القرآن ووحيه إلى محمد ، وهذا من ذاك ، وفى إمكانك أن تروى السيرة رواية سليمة دون أن تعرض لحديث شق الصدر ؛ لأن الدعوة تعتمد أساساً على القرآن الكريم ، وعلى شخصية محمد صلوات الله عليه وخلاله وشمائله ومنهجه فى الدعوة وذكائه البعيد وخلقه العظيم وبسالته فى أداء رسالته وقدرته على اجتذاب الناس وإقناع من يهديه الله منهم بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة وحُنوه البالغ على المسلمين وحرصه الشديد على المحافظة عليهم فى ثباته فى مواجهة الخصوم مع الحلم والشجاعة ، ولا شك فى أن اجتماع هذه الخلال كلها فى رجل واحد أمر عجيب ، وحسن استخدام محمد لهذه الخلال كلها أمر معجز حقاً وخارق لما نعرفه من خلال الناس .

ونعود إلى ما استطردنا عنه لنقول : إن الحصر فى الشِّعب والمقاطعة انتهيا بعوامل تتصل بنفس عوامل قيامها وهى العصبية القبلية ، فإذا كان القرشيون قد قرروا المقاطعة فقد دفعهم إلى ذلك الخوف على مصير قريش ، وإذا كان بعض رؤسائهم قد قرروا إيقاف المقاطعة والحصار فإن دافعهم إلى ذلك كان الخوف على مصير فريق من قريش أشرفوا على الهلاك وكان أسلوبهم فى تنفيذ قرار المقاطعة قبلياً عصبياً يعتمد على الطاعة الواعية لرياسة القبيلة وهى الملأ . ولهذا كان للقرار قوة تنفيذية وفاعلية ، فقد قوطع بنو هاشم وبنو المطلب مقاطعة فعلية وسُجِنوا فى شِعبهم سجناً أفعل من السجن وراء القضبان .

وكان الذين نادوا بنقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة من صميم ملأ قريش ، أى : من كبار القوم ممن لهم قوة إبداء الرأى ، وقد استندوا فى ذلك إلى حجج قبلية أيضاً وإن كانت لها خلفية إنسانية . فهشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث (من بنى عامر بن لؤى) كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه « فكان هشام لبنى هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف فى قومه » وزهير بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم كانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فهو ابن عمة رسول الله ﷺ وكانت عاتكة هذه قد أسلمت سراً ، وهى صاحبة الرؤيا المشهورة التى أخافت قريشاً من الهزيمة

قبل بدر ، وكانت أختها صفية بنت عبد المطلب مسلمة فى السر كذلك ، وكانت من الشخصيات ذوات المكانة الكبيرة فى مكة ، ولها دور كبير فى نشر الإسلام بين المكيين. وكان زوجها الأول فى الجاهلية الحارث بن حرب بن أمية أخا أبى سفيان وله منها أولاد ، ومات عنها ، فتزوجها العوام بن خويلد وأنجبت منه الزبير بن العوام صاحب رسول الله ﷺ .

أما المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، وهو ثالث من قاموا فى نقض الصحيفة فقد كان أبوه نوفل أخاً لهاشم جد النبى ، وقد دفعه إلى التحرك خوفه على بنى هاشم وهم قومه ، فقد قال له هاشم بن عمرو زعيم المنكرين لأمر الصحيفة : «فقد، رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه، أما والله لو أمكنتم وهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً »[1] وإذن فقد اعتمد هشام بن عمرو فى تحريك المطعم بن عدى على عنصر العصب ، وخوَّفه من مغبة التهاون فى أمر بنى هاشم لأنه لو سكت على هذه لأسرع أعداء بنى هاشم إلى القضاء على بنى نوفل بن عبد مناف ، وهم أبناء عم بنى هاشم .

وبالفعل تحرك هشام بن عمرو (من بنى عامر بن لؤى) وزهير بن أمية (من بنى مخزوم وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ) والمطعم بن عدى (من بنى نوفل بن عبد مناف) والبخترى بن هشام ، ثم انضم إليهم زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، تحركوا لنقض الصحيفة أى لكسر قرار قريش وطالبوا بشق الصحيفة ، فتعرضت لهم قريش فى شخص أبى جهل ممثل قريش كلها والجاهلية ، «قال أبو جهل ، وكان فى ناحية المسجد : كذبت والله لا نشقّ (والكلام هنا موجَّه إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد الذى تصدى للكلام باسم المعترضين) ، قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب . ما رضينا كتابتها حيث كُتِبت . وقال البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتِب فيها ولا نُقِرُّ به . وقال المطعم بن عدى : صدقتما ، وكذب أبو جهل ، فما كان محمد ليرضى بأن يوقف الدعوة ، وما كان على أى حال مستعداً لقبول حماية من أبى جهل ، إذا كان هذا يتطلب منه التوقف عن الدعوة .

(١) ابن هشام : ١/ ٣٧٥ .

ولكنه يعود إلى مكة الآن ويريد أن يستمر فى دعوته ، ولهذا فقد فكر فى أن يدخلها فى جوار واحد من كبار أهلها ، قال ابن إسحاق : إن رسول الله ﷺ بعث إلى الأخنس ابن شرِيق ليجيره ، فقال : أنا حليف والحليف لا يجير ، فبعث إلى سُهيل بن عمرو فقال : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدى فأجابه[1].

والخبر على هذه الصورة يبعث على كثير من التساؤل ، فإن رسول الله ما كان يطلب الجوار من الأخنس بن شريق ، وهو يعرف أنه حليف ، أو من سهيل بن عمرو وهو من حسل بن عارم بن لؤى ، وهم يدخلون فى قريش الظواهر ، وقريش الظواهر لا يجيرون على قريش البطاح ، ولكن طلب الجوار من المطعم بن عدى معقول لأن عدياً والد المطعم هو نوفل بن عبد مناف ، فهو ابن عم لرسول الله ﷺ ، وكان من أهل الشهامة والشرف ، قال فيه ابن حزم : وكان شريفاً ، وهو الذى أجار رسول الله ﷺ منصرفه من الطائف[2]. والذى يعنينا هنا فى تنظيم قريش أن سلطانها على مكة بلغ من القوة بحيث لم يكن أحد ليستطيع أن يدخلها إلا فى جوار رجل منها أى : فى حمايته ، فكأن مكة كانت فعلاً مدينة قريش وهى صاحبة السلطان الأعلى فيها ، بل إن بطون قريش البطاح هى نواة قريش وهى الأصل ، وقريش الظواهر تجىء فى المرتبة الثانية .

على أى حال ، لم يكن رسول الله فى حاجة إلى جوار أحد ، وقد كانت له من الثقة فى ربه وفى نفسه ما لا يحوجه إلى حماية بشر ، ثم إنه وقد نفض يده من قريش ما كان ليدعو أحداً منها إلى الإسلام كى لا يزيدها خوفاً ، فاتجه ببصره نحو الأعراب حول مكة وإلى الواردين عليها من الغرباء ، ولم تكن قريش لتخشى شيئاً من هذه الناحية لأنه لا يمس كيانها أو يهدد وحدتها ومصالحها .

وقد أحست قريش أنها انتصرت على محمد بذلك وأمنت على وحدتها وديانتها ونظامها الاجتماعى من دعوته ، فاطمأن بال رجال قريش من هذه الناحية ، وتركوا محمداً يخرج من مكة إلى الأسواق وإلى منازل القبائل يدعوها ثم يعود ، وقد يخرج

---

(١) ابن إسحاق فى نهاية الأرب للنويرى ، جـ١٦/ ص ٢٨٢ .
(٢) جمهرة أنساب العرب : ص ١١٥ .

وحده أو قد يخرج معه أبو بكر ، وقد بذل أبو بكر فى ذلك الوجه جهداً عظيماً ، وخفف عن محمد بعض ما يلقى من رفض الأعراب وقلة اكتراثهم لما يقول أو عدم استجابتهم له .

ومن الواضح أنهم كانوا فى ذلك تبعاً لقريش فى الرأى ، فقريش تتزعمهم فكرياً ودينياً واقتصادياً ، ثم إنهم أوغل فى القبلية من قريش ، وما دامت قريش وهى قبيلة محمد ﷺ قد أنكرت دعوته ، فالأعراب أيضاً ينكرونها . وظل محمد يخرج إلى القبائل البدوية ويدعو بينها بلا نتيجة تذكر فيعود إلى مكة ويدعو من يطرأ عليها من الغرباء والحجاج ، لأن الله سبحانه وتعالى ادخر الإسلام ونعمته الكبرى لقوم من أولئك الطارئين على مكة ، وهم أهل يثرب من الخزرج فيهم أسعد بن زرارة بن عدس ، وعوف بن الحارث بن عفراء ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر بن حديدة ومن إليهم من أهل العقبة الأولى ممن استمعوا إلى الرسول ﷺ وصدَّقوه ووعدوه بأن يُحدِّثوا قومهم بأمره ثم يعودوا وهم بهذا اللقاء الحسن الذى هداهم الله به إلى الإسلام قد فتحوا لأنفسهم ولقومهم أبواب الخير والهداية وباب التاريخ أيضاً .

وإذا كان تماسك قريش وحرصها على مصالحها قد حرمها من أن تكون حاملة راية الإسلام هذه المرة ، فإن اختلاف أمر أهل المدينة كان الباب الذى فتح للإسلام أبواب المدينة ليدخلها ويستقر فيها ؛ لأن صالح أهل يثرب وصالح الإسلام اتفقا بسبب هذا الخلاف القبلى الداخلى . فقد كانت المدينة فى حاجة إلى من يلم شعثها ، وكان الإسلام فى حاجة إلى قوم يلتمسون راية تجمعهم وقيادة توحدهم وطريقاً جديداً يسيرون فيه ، فكانت المدينة وأهلها حلاً لمشكلة الإسلام ، وكان الإسلام حلاً لمشكلة المدينة . ومن هنا كان هذا اللقاء السعيد الذى يعتبر من أسعد لقاءات التاريخ ، وبينما كانت قريش تشكر لآلهتها نصرها على محمد ودعوته كانت لا تعلم أن هذه الآلهة نفسها أو قل تمسُّك قريش بها قد حال بينهم وبين أن تكون قبيلتُهم السابقةَ الأولى إلى الإسلام وحاملة نعمته وبركته .

نساء قريش والدعوة الإسلامية :

استراحت قريش إذن من ناحية محمد ، ولكن عيون رجالها ظلت عليه ، فإذا كان

هو قد اتجه بالدعوة إلى غير القرشيين أو غير المكيين ، فإن الدعوة كانت تدب دبيباً رفيقاً إلى قلوب من لم تكن لديهم دوافع خاصة أو مصالح مادية تربطهم إلى النظام القديم أو تجعلهم يحرصون على بقائه ، فكان الكثيرون من القرشيين يسلمون بقلوبهم ، وربما اتصلوا بمحمد وأعلنوا إليه إسلامهم أو أسرُّوه فى نفوسهم مخافة القرشيين حتى تحين الفرصة لإعلانه ، وقد كان لعلاقات القرابة هنا دور كبير ، لأن الأقارب يتلاقون ويترابطون بوشائج الرحم ، ومن وشائج الرحم تنشأ مصالح وارتباطات .

وهنا نتبين أن نساء قريش كان لهن دور كبير جداً فى نشر الإسلام بين القرشيين فى هذه الفترة ، وهى السنوات الثلاث الأخيرة من الدور المكى ، لأن الدعوة الإسلامية لم تجد عند هؤلاء النسوة ما يمنعهن من اعتناقها ، ففيها رحمة ومودة ، وفيها أمل فى حياة أسعد من الحياة الدنيا ، وفيها مثالية تجتذب القلوب الرقيقة ، وفيها - أخيراً - حقوق للمرأة وأبواب لحرية نفسها وملك زمامها لا وجود لها فى النظام القرشى القائم .

وسنأخذ هنا مثالاً من بيت عبد المطلب الذى ينحدر منه رسول الله ﷺ ، لنرى كيف أن نساء قريش قُمْنَ بدور واسع المدى فى نشر الإسلام بين قريش وأحلافها من أهل مكة .

ونبدأ فنعطى هنا بياناً بأولاد عبد المطلب بن هاشم وبناته وأمهاتهن ، ونظراً لكثرة الأولاد فسنوردهم فى جدولين :

عبد المطلب

عبد المطلب	عبد مناف	الزبير	أم حكيم البيضاء	عبد الله	مرة	أمية	أروى	حمزة	المقوم	حجل	صفية
							عاتكة				المغيرة

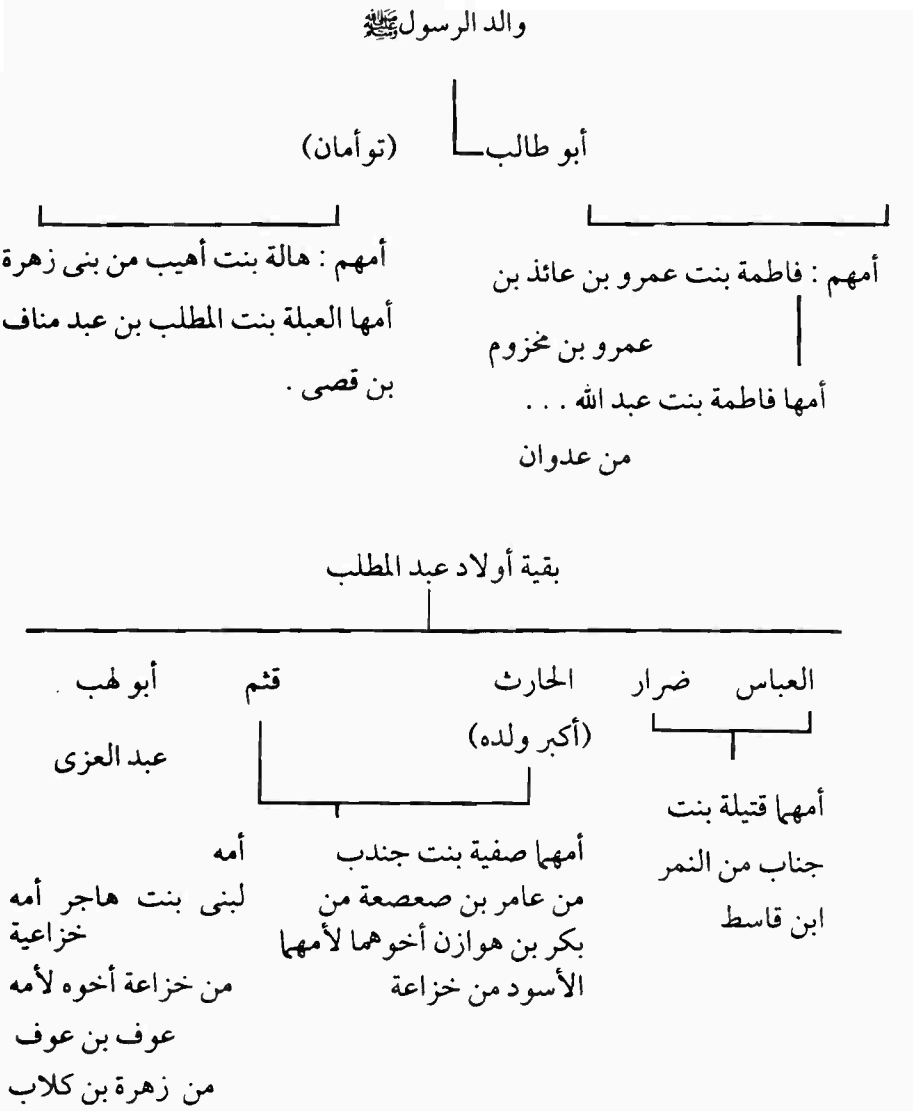

فعبد المطلب جد الرسول ﷺ تزوج ستاً من النساء : واحدة من بنى مخزوم ، وواحدة من بنى زهرة بن كلاب ، وواحدة من بنى عبد مناف بن قصى ، وواحدة من بنى زهرة بن كلاب ، وثلاث خزاعيات، وواحدة من النمر بن قاسط من قيس عيلان.

وهؤلاء النسوة أنجبن له ثمانية عشر منهم أحد عشر ولداً وسبع بنات . فأما الرجال فلم يسلم منهم حتى نهاية الفترة المكية إلا واحد هو حمزة . وأما النسوة فلدينا ما يدل على أنهن جميعاً أسلمن إما قبل هجرة الرسول إلى المدينة أو قبل فتح مكة على أى حال ، بل لدينا ما يدل على أن بعضهن مثل صفية وعاتكة كن عاملات نشيطات فى نشر الدعوة داخل قريش نفسها . وصفية بالذات كانت تحب رسول الله ﷺ وتفخر به ، وكانت سيدة قوية باسلة وثيقة الإيمان وكان أحب إخوانها إليها حمزة رضى الله عنه ، وكتب السيرة كلها تذكر حزنها عليه وإصرارها على رؤيته بعد استشهاده والتمثيل بجسده فى أُحُد . وهى أم الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ. وأسلمت بعدها أختها أروى وهى أم طُلَيْب بن عمير ، وفى طبقات ابن سعد أنها كانت بعد إسلامها : تعضُد النبى ﷺ وتعينه بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره [1] . وأما عاتكة فهى صاحبة الرؤيا التى أرعدت القرشيين وتنبأت بمصارعهم فى بدر.

وكتب الصحابة حافلة بأخبار الصحابيات من بنى هاشم وبنى عبد المطلب بل من بنى عبد شمس ومخزوم ممن أسلمن قديماً ، كما يقول أصحاب كتب السيرة . وما كن يقمن به من الجهد فى الدعوة بين النساء والرجال من قرابتهن . وقد زاد إقبال أولئك القرشيات على الإسلام بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وانتشار دعوته وارتفاع شأن المدينة وأمة الإسلام بها ، كأنهن كُنَّ يرين أنهن القرشيات أَوْلَى بهذه الرتبة وعلو المكانة من غيرهن ، وبعد الحديبية بالذات وانفتاح الطريق بين مكة والمدينة اندفعت أولئك القرشيات فى طريق الدعوة وكثرت وفودهن على المدينة وما منهن إلا أدخلت فى الإسلام أولادها وزوجها وأهل قرابتها ، وقد كان رسول الله يعرف ذلك ويتوقعه عندما قبل صلح الحديبية ، فقد كان يعرف أن تفتُّح الأبواب سيقوض قوى المكيين المكابرين دون أن يشعروا ، وبالفعل ما كاد الرسول صلوات الله عليه يدخل مكة فاتحاً حتى نجد الغالبية العظمى من قريش قد دخلوا فى الإسلام ، لأن الدعوة كانت ماشية فى طريقها على طريق القرشيات ما بين هاشميات وغير هاشميات .

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٨ .

وهذا الانتشار المستمر للإسلام لم يدع لقريش أمناً ، وزاد من يقظتهم ، وكان رسول الله ﷺ يحس بهذه اليقظة ويعمل على حماية أصحابه من جرائرها ويتجلى لنا ذلك فى حرص رسول الله على أن يتم لقاء العقبة الثانية فى خفية من قريش ، قال محمد ابن سعد : إن وفد المدينة الذين أتوا لهذه البيعة سلَّموا على رسول الله ، ثم وعدهم مِنًى وسط أيام التشريق ليلة النَّفْر الأول إذا هدأت الرِّجْل أن يوافوه فى الشِّعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً قال : فخرج القوم بعد هَدْأةٍ يتسللون : الرجل والرجلان ، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى الموضع معه العباس بن عبد المطلب ليس معه غيره [1] ولا يكون هذا الحذر كله إلا إذا كانت هناك يقظة من قريش ، فكأن هذه القبيلة كانت بالفعل شديدة اليقظة دائمة الحرص على سلامتها ، وكانت تمارس على بلدها سلطاناً ورقابة لا تَقِلَّان عن سلطان الدول القائمة ورقابتها .

ولكن يبدو أن تفاصيل ما تم فى لقاء العقبة الثانية غاب عن قريش ، ولكن السبب فى ذلك لم يكن قلة يقظة من قريش بقدر ما يرجع إلى بُعْد نظر محمد صلوات الله عليه. أما كبار أصحابه ممن لم يحضروا العقبة فإن رسول الله أبلغهم خبرها ، ويتجلى لنا هذا فيما يقال على لسان العباس فى هذا اللقاء ، وقد سبق أن شككنا فى خروج العباس مع رسول الله ﷺ فى هذا اللقاء ، والغالب أن قائل هذا هو رسول الله ، فهو وحده فى هذا المقام كان صاحب الأمر والتوجيه ، وإذا نحن تأملنا الكلام فى اجتماع العقبة تبينا أن العباس لم يكن له أى سلطان فى قومه ليقول للمسلمين ، وهو مشرك : «أخفوا جَرْسكم فإن علينا عيوناً ، وقدِّموا ذوى أسنانكم فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى مَحَالِّكم» فهذا حرص بالغ على المسلمين من جانب رجل ليس مسلماً .

أما من أقحم العباس هنا فهم الذين حرصوا فى ظل الحكم العباسى على أن يجعلوا للعباس سابقة فى الإسلام ، فأشركوه مع رسول الله فى مثل هذه المشاهد الجليلة ، ومثال ذلك قولهم إن رسول الله عندما أصلح بين بطون قريش التى كانت تختصم

(١) طبقات ابن سعد ١/ ١٤٩ .

فيمن يضع الحجر الأسود مكانه ، فكان رسول الله صاحب الفكرة الحصيفة فى خلع ثوبه وطلبه إلى القرشيين أن يضعوا عليه الحجر ويرفعوا الثوب جميعاً ، ثم تجىء تلك الدعاية العباسية فتقول : إن الحجر عندما وازى موضعه من ركن الكعبة كان العباس هو الذى حمله من الثوب ووضعه فى مكانه وكان ذلك أيام عبد المطلب ، والأرجح أن عبد المطلب هو الذى فعل ذلك ولكن دعاة العباسيين هم الذين أعادوا صياغة الخبر على هذه الصورة . ومثل هذا كثير.

المهم لدينا أنه كان هنا إحساس بأن على المجتمعين عيوناً ، والعبارة هنا مقصودة بمعناها الكامل والعيون هنا هى عيون قريش . فكأن هذه القبيلة كان لها من التنظيم ما يجعل لها عيوناً على الناس ، يوافونها بالأخبار لتكون دائماً على بينة من أمرها فى كل حين .

ولابد أن نذكر هنا أن هذا الخبر الذى أُقحِم فيه ذكر العباس أصبح نتيجة لذلك مضطرباً لا تستقيم فقراته بعضها مع بعض ، مثال ذلك : « فلما أصبح القوم غدت عليهم جلة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شِعْبَ الأنصار، فقالوا : يا معشر الخزرج، إنَّا بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه على أن تبايعوه على حربنا ، وأيم الله ما حَيٌّ من العرب أبغض إلينا إن شبَّت بيننا وبينه الحرب منكم ، قال : فانبعث من هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم : ما كان هذا وما علمنا .. » وسياق الخبر هنا وبقيته يدل على أن ذلك كان فى المدينة ، وهو لا يصح ، لأن الكلام ينص على أن هذا كان غداة ليلة العقبة ، فكيف ينام قوم فى مكة ويصبحون فى المدينة ؟

ثم إن بقية الخبر تقص كيف تتبعت قريش رجال المدينة فى عودتهم إلى بلدهم بل إننا نقرأ هنا أن أهل مكة أدركوا سعد بن عبادة وضربوه ، وجعلوا يده إلى عنقه بِنسْعَة، أى برباط من سعف النخل أو الخوص ، وكيف يجوز لقريش أن تقيد يدى سعد بن عبادة وتضربه ؟ وفى النهاية نقرأ « فرحل القوم جميعاً إلى المدينة » [1] ومثل هذا الاضطراب فى نسق الخبر قولهم « نبرأ إلى الله منها ومما كُتِب فيها . قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك » .

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ١٤٩ - ١٥٠ .

ومعنى ذلك أن قريشاً عندما قررت المقاطعة والحصر استعملت الضغط على المعارضين من مَلَئِها ، فوافقوا على رغمهم ، وها هم الآن يقررون ذلك.

وكان رد أبى جهل عظيم المعنى بالنسبة لتنظيم قريش، قال : «هذا أمر قُضى بليل، تُشوور فيه بغير هذا المكان » أى أن قرارات قريش كانت تُتخذ وتتم الموافقة عليها علناً ، وفى مكان معين هو دار الندوة فى الغالب ، وقوله «تشوور فيه بغير هذا المكان» يعنى أن هذا المكان مكان المشاورة والقرارات فإذا بحث أمر خارج هذا المكان -دار الندوة - أو موضع آخر حول الكعبة ، فهو أمر غير قانونى مخالف لما ينبغى أن تكون عليه الأمور .

المستَهزئون - الخُروج إلى الطّائف :

نُقضت الصحيفة إذن فكان ذلك نصراً لبنى هاشم وبنى المطلب ، ولكنه لم يكن نصراً للإسلام فقد ظلت قريش على موقفها وازداد أمر المسلمين ضيقاً ، فإن قريشاً شددت من موقفها ، وظلت رغم نتيجة الحصار محتفظة بوحدتها وموقفها المعادى للإسلام ، ولكن رجالها أيقنوا أنهم لا يستطيعون شيئاً حيال محمد ﷺ ، فلجأوا إلى أساليب جديدة فقد استعملوا العنف والاضطهاد والحصار وَوُفِّقوا فيما أرادوا ولكنهم كما قلنا ظلوا يخافون محمداً والإسلام ، فأرادوا أن يزيدوا أنفسهم حصانة فلجأوا إلى الاستهزاء بالإسلام وأهله ، وكانت السخرية من أساليب العرب المعروفة فى صراع القبائل بعضها مع بعض ، وفى صراع الناس بعضهم مع بعض ، ومن هنا جاء الهجاء وشعره ، والنقائض وكلها أسلحة صراع تقوم على السخرية والاستهزاء لها أثرها الفعال .

وكان الاستهزاء بالدعوة وصاحبها سلاحاً ظنت قريش أنه ينال من الإسلام ، لأنه يجعله هزواً وسخرية ويجعل كلام محمد مدعاة للتقليل من شأنه ، وكلنا نعرف فعل الرسوم الهزلية المعروفة بالكاريكاتورية فى الصراع السياسى اليوم ، وبطبيعة الحال كان الساخرون الذين تصدوا لذلك من أهل الفكاهة والنادرة واللسان اللاذع ، وكان بعضهم من سادات قريش ومن يحسبون أنفسهم أذكياء.

وعندما نقرأ كلام أولئك الذين يسميهم القرآن الكريم بالمستهزئين يستوقف نظرنا

إيغالهم فى الرفض والعناد وما يجرى على لسانهم من كلام ، كأن المعركة مع الإسلام زادتهم تمسكاً بآرائهم ، وهنا تتجلى لنا خاصية من خصائص الحياة القبلية وهى تشترك فى تلك الخاصية مع الحياة القروية ، وهى خاصية طرد أى غريب يطرأ عليها ، مثلها فى ذلك مثل الأجساد ، وكلنا نعرف هذه الظاهرة البيولوجية التى تُعرف فى الإنجليزية باسم Rejection وجسد الكائن الحى يرفض أو يطرد أو ينفى كل كيان يحس أنه غريب عنه ، وهو فى هذه الحالة يطرد كل ما يحس أنه غريب ولو كان مفيداً له ، فإن الجسم يطرد القلب السليم الذى يُزرع فى مكان قلب المريض ، ويرفض الكلية السليمة مع أنها تُزرع فيه لحمايته وشفائه .

وقريش كانت قبيلة تعيش فى - وحَوْلَ - مدينة صغيرة كأنها قرية ، والقرآن الكريم سماها أم القرى أى أكبر القرى ، ولم يقل أنها مدينة ، والقرآن دقيق الدقة كلها فى استعمالاته ، فقد سمى المدينة باسمها ، وهو اسم ووصف فى آن واحد ، وسمى مكة والطائف بالقريتين لأن الطائف أيضاً كانت قرية وقبيلة ، وهذا مبحث آخر لانريد أن نستطرد فيه هنا ، والمهم لدينا أن ظاهرة الطرد هذه كانت قوية جداً فى مكة لأنها قرية وقبيلة ، وكانت أقوى وأظهر فى الطائف ، لأنها كانت قرية أصغر من مكة .

وهذا يفسر لنا رفض أهل الطائف وهم قبيلة ثقيف - رفضوا مجرد الاستماع لرسول الله ﷺ ، لأن الإسلام الذى أتى يبشر به بدا للثقفيين عنصراً غريباً جداً عن طبيعة تكوين قريتهم ، فكانت ميكانيكية الطرد أشد وأقوى ، ومن ثم فإن أهل الطائف رفضوا مجرد الاستماع ومارسوا الطرد حرفياً ، فلم يستريحوا حتى أخرجوا رسول الله من مدينتهم بالقوة ، قال ابن إسحاق: «وأَغْرَوا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبُّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى حَبَلَة من عنب ، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف..»[1] .

وهنا ، رسول الله يجد نفسه خارج الطائف - وخارج مكة أيضاً ، فكلا المجتمعين

(١) سيرة النبى لابن هشام : ٢/ ٦١، والحبلة شجرة العنب أو قضبانها.

المكى والطائفى قد خاف منه - أو بتعبير أدق من الدعوة الإسلامية التى يقول بها - هنا نفهم الدعاء الذى دعا به رسول الله ﷺ ربه فى ضوء جديد ، فنحن نقرأ هنا الدعاء بإعجاب وتأثر بالغين لما فيه من صدق الإيمان والإخلاص التام لله سبحانه ، وما ينطوى عليه من تمسكه بأداء رسالة لنبى مرسل من الله سبحانه ، وكنا نحسب أن هذا قصارى ما يكون من إدراكنا لمعانى هذا الدعاء ، والآن تعطينا دراستنا هذه معنى ومغزى آخرين له فهو هنا سؤال (فى صورة دعاء) من الرسول إلى من أرسله (الله سبحانه وتعالى) خلاصته : الآن يا ربى قد بذلت غاية جهدى مع أهل مكة (الذين أرسلت فيهم) وأهل الطائف (الذين أردت أن أذهب بالدعوة إليهم) فماذا أعمل؟. إننى مخلص لك الإخلاص كله ، مؤمن بك الإيمان كله. وقد وصلت من أولئك الناس إلى أقصى ما استطعت الوصول إليه فماذا أعمل الآن ؟ وإلى أين أتجه؟ إننى لاأبالى إلا بك ، فما دمت راضياً عنى غير غاضب علىَّ فما أبالى بشىء وأنت سبحانك بقوتك وحولك تستطيع أن تفتح لى سبيلاً جديداً ، وأنا يا ربى طوع أمرك ، ورهن مشيئتك ولن أدع هذا الأمر ما حييت ، فماذا أعمل الآن؟ وإليك نص هذا الدعاء الذى يُعتبر أجمل وأصدق وأخلص دعاء توجه به نبى مرسل إلى الله الذى أرسله ، وسأقسمه إلى فقرات لكى تستبين المعانى التاريخية والدلالات الاجتماعية التى أشرت إليها آنفاً :

١ - اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقِلَّة حيلتى ، وهوانى على الناس.

٢ - يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى .

٣ - إلى من تكلنى ؟

٤ - إلى بعيد يتجهمنى (يريد أهل الطائف) .

٥ - أم إلى عدو ملكته أمرى (يريد قريشاً) .

٦ - إن لم يكن بك غضب عَلَىَّ فلا أبالى .

٧ - ولكن عافيتك هى أوسع لى.

٨ - أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا

والآخرة من أن تُنزِل بى غضبك ، أو يحل عَلَيَّ سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حولَ ولا قوة إلا بك [1].

المفروض فى ترتيب حوادث السيرة أن الخروج إلى الطائف كان بعد وفاة أبى طالب وخديجة ، ووقوف محمد صلوات الله عليه وحده بعد هذه المرحلة الثانية الطويلة من مراحل كفاحه لنشر دعوته وقوله : «أم إلى عدو ملَّكته أمرى؟».

ويكون جواب الله سبحانه وتعالى على هذا الدعاء الذى توجه به إليه عبده الصادق ورسوله الأمين أبلغ برهان على صدق الرسالة ومجيئها من عند الله وتأييده لها سبحانه : الإسراء والمعراج ، وكأن الله سبحانه أراد أن يقول لنبيه: هؤلاء كذبوك ورفضوا دعوتك ووقفوا صفاً واحداً من دونك؟ لا عليك امْضِ فى رسالتك وأنا عاصِمك من الناس ، أنا أسرى بك ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [2] والإسراء ثابت بنص القرآن الكريم ، وأما المعراج فثابت أيضاً من حديث ثابت البنانى بإسناد متصل عن مسلم بن الحجاج ، وهو مُؤيَّد ضمناً بما ورد فى سورة النجم من الآية الأولى إلى الثامنة عشرة ، وقد اجتمع رأى المفسرين على أنها تأييد وتفصيل لخبر العروج برسول الله ﷺ إلى السماء ، وليرجع من يشاء الاستزادة من ذلك إلى كتاب الشفاء للقاضى عياض بن موسى اليحصبى ، ففيه غَنَاء للمستزيد .

وهكذا تكون أدنى درجات اليأس من الناس هى بداية أرفع درجات التكريم والتأييد من الحق سبحانه وتعالى ، ويكون بأس رسول الله ﷺ من قريش فتحاً عليه من البارى ، فقد وجَّهه ربه إلى غير القرشيين فسعى واجتهد وسعى واجتهد ، ثم كانت بداية النصر هى اللقاء الأول مع أهل يثرب وبيعة العقبة الأولى وما أعقب ذلك من آلاء كرم الله سبحانه ، وتأييده للإسلام وأهله. ولكن هذه هى السيرة ونخشى أن تصرفنا فتنتها عن حديث قريش ، فلنعد إلى ما كنا فيه .

* * *

(١) ابن هشام ، السيرة ٢ / ٦٢ .
(٢) سورة الإسراء : آية ١ .

يستوقف نظرنا فى خبر عودة رسول الله ﷺ إلى مكة بعد ما لقى من إعراض أهل الطائف عن دعوته وإخراجهم إياه من بلدهم ، قول ابن إسحاق إن رسول الله فى طريق عودته توقف بنخلة والمراد هنا نخلة اليمانية ، فهى التى يمكن المرور بها للوارد من الطائف ، وهنا يسأله زيد بن حارثة ، وهو كان رفيقه الوحيد فى تلك الرحلة القاسية: كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك؟ والسؤال هنا لا وجه له إذا أخذناه على ظاهره ، لأن الذى نعرفه إلى الآن هو أن محمداً ﷺ لم يخرجه أحد ، وإنما كان هو الذى خرج من تلقاء نفسه باحثاً عن ميدان آخر لنشر الدعوة ، بعد أن وقفت قريش منه هذا الموقف الرافض المعاند ولم تتحرك منه خوفاً على نفسها .

ولكن يبدو أنه بعد وفاة أبى طالب وانتقال رياسة بنى هاشم إلى عبد العزى بن عبد المطلب وهو عم رسول الله ، لم يكن عبد العزى وهو أبو لهب وموقفه من الرسالة والرسول معروف مستعداً لحماية محمد إذا هو استمر فى دعوته التى تثير مخاوف المشركين ، وهو منهم . وتذكر بعض النصوص أن أبا لهب عندما انتقلت إليه الرياسة أعلن لمحمد أنه يحميه إذا هو ترك الدعوة فى مكة ، فخرج رسول الله يحاول مع أهل الطائف ، والآن هو لم يصل إلى شىء مع الثقفيين فهو مضطر إلى الرجوع إلى مكة . وكأنه وقد خرج قد تخلى عن حماية أبى لهب وهذا هو المعقول ، وفى الأخبار كثير عند ابن سعد .

وقد شهدت هذه الفترة تطوراً حاسماً فى تاريخ قريش ، وهو صعود أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية إلى الرياسة الفعلية لقريش ، أو بتعبير أدق إلى قيادة المقاومة للإسلام . وقد قلنا هنا «صعد» .. ولم نقل « وَلِى » أو وُلِّى لأن نظام قريش كان نظاماً قبلياً لا وظائف فيه ولا رياسة ، وإنما كانت الملكات هى التى تقدم أصحابها ، وفى معظم القبائل كان التنافس على الرياسات مشكلة دائمة بسبب نفور الأنداد من الاعتراف بالتفوق بعضهم على بعض ، ولكن الأمر كان ينتهى دائماً بالتسليم للأوفق والأقدر ؛ لأن المسئولية فى الحياة القبلية مسئولية مباشرة وواضحة ، وغير الكفؤ لا بد أن يفسح الطريق لغيره . وفى قريش خاصة ، حيث كان الشعور بالصالح العام مرهفاً ، كان الملأ يسلم بالمسئولية لمن يستحقها دون مشاحنة ، وقد رأينا كيف تراجع

أبو طالب عملياً - وحَلَّ محله فى رياسة قريش رجال أكفأ منه فى سياسة أمور القبيلة فى شتى الميادين ، وهؤلاء الرجال هم الذين تولوا حماية قريش مما توهموا أنه خطر الإسلام على القبيلة .

وفى أُسْد الغابة لابن الأثير إشارة ذات معنى ترد فى ترجمة أبى سفيان بن حرب تقول: «وقيل : كان أفضل قريش رأياً فى الجاهلية عتبة وأبو جهل وأبو سفيان ، فلما أتى الله بالإسلام أدبروا فى الرأى» [1]. وعتبة هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وقد كان ذا رأى حسن فعلاً ، ولكنه كان ينتمى إلى جيل ذوى الأسنان من القرشيين ، مثله فى ذلك مثل الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وعبد الله بن جدعان ، وهؤلاء وأهل طبقتهم هم الذين كانوا يتولون أمر قريش فعلاً حتى ظهرت دعوة الإسلام ، ونشأت الأزمة واحتاج الأمر إلى رياسة شابة تواجه الموقف ، جيل محمد ﷺ أى أنداده فى السن وبرز من بينهم أبو جهل ، ولكنه لم يستطع قيادة المعارضة بالهدوء والرزانة المطلوبتين ، مما جعل أصحاب الأسنان والأموال يسرعون من مصطافهم فى الطائف كما ذكرنا ، فتولوا الأمر وحاولوا التفاهم مع محمد ﷺ أولاً ثم مع أبى طالب ثم مع محمد مرة ثانية ، ثم قادوا قريشاً فى مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب .

وعندما انتهت المقاطعة بدأ أمر أبى سفيان بن حرب يقوى ، وكان أول ظهوره ما كان من تميزه فى شئون التجارة ، فكان هو الذى ينظم القوافل ويجمع الأموال ، وقد يخرج بها ، وقد لا يخرج. وقد أبدى فى هذا الباب مهارة كبيرة ، فأصبح المسئول عن هذه الناحية الهامة من نواحى الحياة المكية ، وخلال الحقبة الأخيرة من الفترة المكية من البعثة النبوية نجد أن أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس يتولى قيادة قريش فى صراعها مع الإسلام ، وسيظل فى هذه المكانة حتى معركة الخندق فى السنة الخامسة للهجرة .

المرحلة الثالثة الأخيرة من الفترة المكية :

بعد انتهاء مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب وخروجهم من الشِّعْب بقليل ، توفى أبو طالب ، وبعد قليل توفيت خديجة رضى الله عنها أم المؤمنين. وكان ذلك بإجماع

(١) أسد الغابة ، ترجمة أبى سفيان ٢/ ٤٤٨ وما بعدها .

المؤرخين قبل الهجرة بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٠ من البعثة وبقى رسول الله ﷺ وحيداً وإن أحاطت به قلة من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلىٌّ وزيد بن حارثة ، وبدأت الحقبة الثالثة من الفترة المكية ومدتها ثلاث سنوات .

وواضح أن خديجة رضى الله عنها ماتت من أثر الجهد الذى عانته أيام الحصر والمقاطعة . وقد كانت سنها يوم تزوجت رسول الله أربعين سنة بإجماع الروايات ، ومكثت معه قبل البعثة خمس عشرة سنة هى أهنأ سنوات عمرها ، فقد كان ﷺ نِعْم الزوج ونِعْم السكن لزوجه ، وخلال هذه الفترة أنجبت له أولاده : القاسم (وقد درج صغيراً وبه كان يكنى) ثم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وهى صغرى بناته ، ويقال إنه أنجب غلاماً ثانياً يسمى الطاهر، درج أيضاً ، ولم ينجب لرسول الله إلا خديجة ثم مارية القبطية .

ثم جاء الوحى ويجىء دور خديجة رضى الله عنها ، ووقوفها معه وتثبيتها له . ومن عجب أن بعض مؤرخينا يتساءل إن كان أبو بكر أول المسلمين مع أن خديجة آمنت به قبل أن يعرف أنه نبى ، فبمجرد أن أبلغها نبأ الوحى ، عرفت أنه بشرى خير فوقفت إلى جانبه وشجعته وعملت على تثبيت فؤاده وأخذت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فطمأنه ، ولازمته بعد ذلك خلال الفترة مؤيدة حانية ، فلما نزلت الآيات الأولى من المدثر وبها أصبح رسول الله نبياً رسولاً ازداد إيمانها به ، وكانت أولى المصليات خلفه ، وهنا كان دخول أبى بكر وعلى بن أبى طالب فى الإسلام.

وكانت سن خديجة إذ ذاك خمساً وخمسين سنة ، ثم قضت معه بعد البعثة تسع سنوات وثمانية أشهر ، عانت فيها معه متاعب الدعوة كلها وكانت له خير الزوجة وأحسن الأمن والسكن ، وتجرعت معه رعب الحصر والمقاطعة ، فلما انتهت المقاطعة كانت سن خديجة أربعاً وستين سنة وثمانية أشهر، وقد هاضها التعب والإجهاد ، فماتت بعد نهاية الحَصْرِ بقليل وسِنُّها أربع وستون سنة وتسعة أشهر .

وأما أبو طالب فقد مات عند سن عالية ، ربما كانت الثمانين ، وفقد رسول الله بموته صديقاً كريماً وحامياً ثابتاً ، ظل إلى جواره وإن لم تحمله نفسه على الإيمان فمات كافراً .

وبموت أبى طالب بقى رسول الله ﷺ وحده تقريباً كما قلنا ، وتولى رياسة بنى هاشم عبد العزى أبو لهب بن عبد المطلب ، وقد تحدثنا عن موقفه من رسول الله ﷺ والإسلام.

وما بقى لرسول الله ﷺ فى مكة ، مدته ثلاث سنوات من ١٠ إلى ١٣ للبعثة وهى الحقبة الرابعة والأخيرة من الفترة المكية التى تُقَسَّم كما يلى :

من سنة ١ إلى نهاية ٢ للبعثة : الحقبة الأولى، الدعوة السرية ثم العلنية حتى دخول دار الأرقم من سنة ٣ إلى نهاية ٥ للبعثة : ومدتها ثلاث سنوات انتهت آخر سنة ٥ للبعثة بعد إسلام عمر بن الخطاب وخروج المسلمين من دار الأرقم والدعوة العلنية والصراع مع قريش.

من بداية سنة ٦ إلى ثمانية أشهر من السنة التاسعة للبعثة أى سنتان وثمانية أشهر هى مدة الحصر والمقاطعة .

من ١٠ إلى ربيع الأول هجرية وهى الحقبة الأخيرة التى نحن بصددها ومدتها ثلاث سنوات وشهران و١٢ يوماً ، وهى الحقبة التى بلغ فيها اضطهاد قريش لرسول الله ذروته ، وفيها كان الخروج إلى الطائف والعودة منها ، ثم الإسراء والمعراج ، ثم الدعوة للأغراب داخل مكة وللأعراب خارجها حتى كان الاتصال الأول بوفد الخزرج من أهل يثرب وبيعة العقبة الأولى ، وكانت قبل الهجرة بسنتين ، ثم لقاء وفد اليثربيين من الأوس والخزرج ونفر من الجهنيين وبيعة العقبة الثانية قبل الهجرة بسنتين ، ثم إرسال رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلى مكة وانتشار الإسلام فى يثرب ثم هجرة رسول الله ﷺ إلى قباء فى ١٢ ربيع الأول سنة ١ للهجرة / ٢٤ سبتمبر ٦٢٣م .

أبو سفيان صخر بن حَرب وَبنو عَبد شمس يتولّون قيَادة قريش فى صرَاعها مع الإسلام :

بعد ذلك الفشل فى مواجهة دعوة الإسلام ، كان لا بد لقريش من سياسة جديدة حياله ، وتلك السياسة كان لابد لها من زعيم جديد يسير فيها . ولم يكن قد بقى

لقريش إذ ذاك من الزعماء من يصلح لهذا الأمر إلا أبو سفيان صخر بن حرب .

وكان أبو سفيان رجلاً ذا مواهب واضحة فى شئون المال ، لأنه بطبعه كان رجلاً هادىء المزاج عملى التفكير واقعى النظرة ، ولم يتصف قط بخصائص إنسانية أو روحية أو فكرية . ومن تصرفاته ترى أنه كان رجلاً بارد العواطف ذا طموح إلى السلطة والمال . ونظراً لموقفه المناهض للإسلام وللشك فى صحة إسلامه بعد فتح مكة ، فإن المراجع لا تطيل الحديث عنه ، وإن كنا نحمد لأصحابها أنهم أعطوه جانباً لا بأس به من العناية ، واقتصدوا فى تشويه صورته على مذهبهم فى الكلام عن الصحابة ممن لا يرضون عنه ، إذا كان فى صحة ضمائرهم شك ، والاكتفاء بذكر محاسنهم ، وكان من حسن حظ أبى سفيان أنه أسلم وإن ظل إسلامه سطحياً إلى آخر حياته ، ولم تفعل المراجع شيئاً لصقل صورته كما فعلت مع العباس بن عبد المطلب ، لأن سلطان بنى حرب بن أمية سرعان ما انتهى بعد وفاة يزيد بن معاوية ، واتجهت العناية إلى بنى مروان بن الحكم بن أبى العاص ، والدولة السفيانية حل محلها الدولة المروانية ، فلم يعد هناك ما يدعو إلى تجميل صورة السفيانيين ، أو قل لم يعد هناك من يدفع أجر ذلك ، وإلا فإننا إذا تأملنا واقع الأحداث نجد أن العباس لم يكن خيراً من أبى سفيان فيما يتصل بالموقف من الإسلام ، وفى السطور التالية ستتكشف لنا حقائق أخرى تتعلق بهذا الموضوع وهو فى أنساب الأشراف للبلاذرى .

فى أكثر كتب التراجم تفصيلاً لا نجد شيئاً يشفى الغُلَّة عن أبى سفيان ومروان بن الحكم ، أكثر مما نجد فى الكتب التى أُلِّفَتْ فى الصحابة ، وكلها مختصرات ، وخلاصتها كلها أن أبا سفيان أسلم يوم الفتح وأن إسلامه حَسُنَ بعد ذلك ، وإن كان هناك الكثيرون ممن يشككون فى صحة هذا الإسلام ، وشهد بعد إسلامه بعض المشاهد مع رسول الله ، وفقد إحدى عينيه فى حصار الطائف ، واستمر يحارب فى صفوف المسلمين فى أيام الراشدين ، حتى فقد عينه الأخرى فى موقعة اليرموك ، وتوفى سنة ٣٢ أو ٣٤ هـ . فى خلافة عثمان عن ثمان وثمانين سنة أو نحوها ، وإذا نحن حسبنا عمره على هذا الأساس وجدنا أن سِنَّه كانت عند بعثة محمد ﷺ فى الحادية والأربعين ، أو الثالثة والأربعين من العمر ، فهو إذن من جيل رسول الله مثله فى ذلك ، مثل أبى جهل وأبى لهب عبد العزى .

ولكن الذى يهمنا هنا هو أبو سفيان قبل إسلامه ، فهو إلى هذه المرحلة من دراستنا يقف فى صفوف أعداء الإسلام ، ولكن المراجع لا تنسب إليه خبراً واحداً عن أعمال السفاهة التى كان يرتكبها غيره من أبناء جيله ، مثل عقبة بن أبى معيط وهو ابن عم أبى سفيان وشيبة بن ربيعة وهو الأخ الأصغر لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وهو أيضاً ابن عم أبى سفيان ، فكأن الرجل كان ينأى بنفسه عن هذه الصغائر رغم كفره ، بل كان أهدأ من أبى جهل طبعاً وأذكى فؤاداً ، ويتجلى ذلك فى مقدمات موقعة بدر .

وهذا الاتزان إلى جانب الانصراف إلى المال وحسن تدبيره له ومهارته فى الشئون التجارية ، هى التى وصلت بأبى سفيان إلى قيادة قريش بعد هجرة رسول الله ﷺ وقيام أمة المدينة ، وبداية الصراع المسلح حيناً والسياسى حيناً آخر بين الجانبين.

وسبب وصول أبى سفيان إلى القيادة - إلى جانب خصاله التى ذكرنا بعضها ، ويأتى الباقى فى سياق الكلام - ذلك أن رسول الله ﷺ بعد استقراره فى المدينة وقيام أمة الإسلام ، لجأ إلى الضغط على قريش عن طريق إيقاف تجارتها مع الشام ، أى حرمانها من مورد الرزق الأساسى لها ، وذلك بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام أولاً ثم إلى العراق ثانياً ، لأنه كان يتحاشى تحطيم قريش عسكرياً ، ولو أراد لفعل ، ولكنه ﷺ كان يعرف قدر قريش وملكات رجالها ، بل كان يعرف سبب عنادها ، فاتجه بصره إلى حربها حرباً اقتصادية ، ولما كان أبو سفيان هو رجل المال ومنظم القوافل وقائد معظمها ، فقد أصبحت المشكلة مشكلته ، أى أنه أصبح الزعيم القرشى الذى تعيَّن عليه الخروج بقريش من تلك الأزمة ، فحاول حلها بالحرب (بدر ثم أُحُد) ثم بالسياسة والحرب (الخندق) ثم اتجه لحلها عن طريق السياسة ، وهو طريق التاجر فنجح وأنقذ قريشاً ، وتفطن إلى ما كان الرسول ﷺ يسعى إليه من كسب قريش إلى الإسلام دون تحطيمها أو إذلالها أو كسر أنفها ، فسار فى ذلك الطريق ونجح فيه كما قلنا ، كما سنرى .

ويبدو أن أبا سفيان كان منصرفاً باهتمامه كله إلى شئون المال ، فلا نلاحظ أن له دوراً واضحاً فى صراع التضييق على المسلمين وربما كان السبب فى ذلك أن إحساسه بخطر الإسلام على قريش كان أقل من إحساس غيره ، نظراً لضخامة بيته وكثرة

أفراده وانصرافهم التام إلى مصالحهم ومصالح بيتهم . وقد كاد أبناء أمية الأكبر وأمية الأصغر وعبد أمية من أبناء عبد شمس وحدهم أن يكونوا قبيلاً قائماً بذاته . وفى الجداول الملحقة بذلك الكتاب شجرة نسب أو جدول نسب عبد شمس بن عبد مناف بن هاشم ، وهو يوضح لك هذه الصورة .

وإنما أوردنا هذا البيان عن بنى عبد شمس وفروعهم الكثيرة ، لأننا وصلنا فى هذا التاريخ ، إلى دخول أبى سفيان ميدان الحوادث التى قدمته ورشحته للقيادة ، وبتقدُّمه هذا يبدأ تطور بعيد المدى فى تاريخ قريش ، لأن قيادة أبى سفيان لقريش لم تكن أمراً خاصاً به ، بل ببنى عبد شمس جميعاً . ومن ذلك الحين سيظل بنو عبد شمس قوة من القوى المحرِّكة لتاريخ قريش ، فإن بنى عبد شمس بن عبد مناف يدخلون الآن ميدان الزعامة فى قريش ممثلين للوثنية العربية فى مواجهة الإسلام ، ودخولهم هذا يفتح أبواب القوة لعنصرين رئيسيين من عناصر القوة والقيادة : عنصر المال وعنصر السياسة .

لقد كان المال دائماً عاملاً أساسياً فى الحياة القرشية ، ولكن بنى هاشم وعبد الله ابن جدعان سيد بنى تميم بن مرة والمطعم بن عدى شيخ بنى نوفل بن عبد مناف ، وبقية الجيل القديم من بنى عبد شمس ومخزوم وبيوت قريش التى ذكرناها كانوا يستخدمون المال للفخر والشرف والسؤدد ، والسؤدد هو السيادة الشرفية المعنوية التى تستخدم المال لاجتذاب القلوب واجتلاب المحامد ، فكل زعماء قريش إلى الآن كانوا أغنياء ولكنهم لم يحوِّلوا المال إلى قوة أو يترجموه إلى سيطرة على الآخرين . وأبو سفيان أيضاً كان غنياً وهو لم يصل إلى الزعامة بالمال وحده ، بل بالعقل كذلك والرزانة وطول الفكرة ، ولكنه لم يكن يحفل كثيراً للسؤدد أو الفخر ، وهو لهذا كان يدخر ماله لأنه يعرف قدر المال .

وفى كنفه نشأ ابنه معاوية وعرف - عندما قام النزاع على السلطان - كيف يستخدم ماله فى الوصول إلى السلطان أى كيف يُترجم المال إلى قوة ، وهى حقيقة لم ينبه عليها أحد من مؤرخينا ، فالذى لا شك فيه هو أن يزيد بن أبى سفيان وأخاه معاوية بن أبى سفيان ، عندما ذهبا إلى الشام أثناء الفتح الإسلامى وبعده كانا غنيين ، وقد استثمرا

مالها استثماراً طيباً فى كسب الناس وجمعهم حولهم ، وعندما مات يزيد عامل الشام لعمر بن الخطاب ، ورث مكانه وشيئاً من ماله أخوه معاوية ، وكان بنو أمية بفرعيهم قد أوعبوا فى الهجرة إلى الشام والمشاركة فى فتحها ، فجمعهم معاوية حوله ومضى يصطنع الأنصار بالمال ، ولم يقل أحد إن معاوية عدا على مال الجباية ، وما كان عمر ليتهاون معه فى ذلك ، ولكن معاوية كان ينظر إلى ما بعد المال : إلى القوة السياسية ، وقد أنفق فى ذلك جانباً عظيماً من ماله فى تأثيل سلطانه على بلاد الشام .

وفى أيام عمر نفسه كان معاوية يتصرف فى بلاد الشام تصرُّف الأمير المستقل العظيم المظهر ، وفى أيام عثمان أصبح يتصرف تصرف الملوك ، ولو أن رجلاً آخر غير على بن أبى طالب خلف عثمان فى الخلافة فإن النزاع كان لا بد واقعاً بينه وبين ملك الشام هذا ، لأن بنى عبد شمس بن عبد مناف بأعدادهم الكثيرة كانوا قد ضربوا فى أرض الشام جذوراً عميقة ، ذهبت كل مذهب ، بحيث أصبح اقتلاعهم من السلطان فى الشام اقتلاعاً للأرض نفسها ، والمطالبة بدم عثمان لم تكن إلا ستاراً ، والاعتراض على عزل علىٍّ إياه عن الشام كان مجرد ذريعة وتكأة ، أما الحقيقة فهى أن آل عبد شمس كانوا قد ذهبوا بالشام ، ولم يكن هناك سبيل لاسترجاعه منهم إلا بالحرب .

وفى هذه الحرب استشهد على بن أبى طالب الذى تمسك بالإسلام وتولى الخلافة للإسلام ، وأراد أن يزيل أولئك الملوك الذين تربعوا فى قلب الدولة الإسلامية . وفى الحرب أيضاً ضاع أمر عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، ولم يكن عبد الله بن الزبير فى مستوى علىٍّ من حيث الالتزام بالخط الإسلامى الخالص ، وإنما هو رجل من رجال الجيل الثانى من الصحابة ، طلب الخلافة لذاتها ولنفسه ، ولم يوهب موهبة استخدام المال لاجتلاب القوة ، بل كان مُقَتِّراً شديد الحرص ، فسهل على عبد الملك بن مروان إزاحته عن الطريق رغم أن غالبية المسلمين ، كانوا يفضلون آل الزبير على آل مروان .

وهذا التطور البعيد المدى فى مصائر قريش وأمة الإسلام معها ، بدأ قبل ظهور أبى سفيان على مسرح السياسة القرشية،لأن بداياته كانت مع نشوب النزاع والتنافس بين هاشم وعبد شمس ابنى عبد مناف بن قصى ، وقد ذكرنا ذلك وحكينا أن أمية بن

عبد شمس هو الذى تصدى لعمه هاشم وتحداه ، ثم خسر أمامه فنفى نفسه إلى الشام فيما يقول الرواة . أما أبوه عبد شمس فقد وقف إلى جوار هاشم وأيَّده لأن هذا الجيل القديم من القرشيين كان يؤمن بوحدة قريش . وأبناء عبد مناف كانوا يداً واحدة على من عداهم ، أما أمية بن عبد شمس فلم يكن لديه هذا الإحساس .

ولا نستطيع أن نؤكد أنه نفى نفسه إلى الشام فعلاً ، فقد يكون الذى حدث هو أنه انصرف بكليته إلى التجارة مع الشام فكثرت أسفاره إليه ، ولكن مكة كانت مستقره الدائم ، بدليل أنه لم يتزوج امرأة واحدة من نساء الشام ، ولكن المهم أنه جمع مالاً كثيراً وأصبح بذلك من أهل القوة فى مكة ، واعتماداً على هذه القوة زادت قدرته وقدرة بنى بيته ، على التنافس مع بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، ولم يكن أحد من بنى أمية الأكبر نداً لعبد المطلب ولهذا لا نسمع عن بنى أمية فى أيامه . ولكننا نجد بنى عبد شمس بين الجماعة الذين أساءوا التصرف وتعدوا الحدود ، مما أدى ببنى هاشم إلى تكوين حلف الفضول ، ثم نجدهم بعد عبد المطلب فى حلف الأحلاف أو حلف لعقة الدم مناهضين للمطيبين وعلى رأسهم بنو هاشم ، وفى أيام أبى طالب استمر تقدُّم هذه الجماعة وهى جماعة بنى عبد شمس ، ومخزوم وبنى سهم ، وبنى جمح ، وبنى عبد الدار ، وبنى تيم بن عبد مناة ، أى : جماعة المال .

والآن وقد اتضح أن أبا الحكم عمرو بن هشام وهو أبو جهل لم يستطع قيادة المعارضة للإسلام ومحمد صلوات الله عليه ، يدخل الميدان أبو سفيان رجل المال والتجارة .

ولو نظرنا إلى جدول نسب بنى عبد شمس لوجدنا أن أبا سفيان كان فعلاً واسطة هذه الوحدة القبلية الكبيرة ، وأمه صفية بنت حَزن وكانت من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ، ومن أولادهم سيكون الهلاليون المشهورون فى تاريخ المغرب الإسلامى ، وغريب أمر بنى هلال هؤلاء ، فهاهم أصهار أبى سفيان بن حرب ، وسيصاهرهم رسول الله ﷺ مرتين ، فهم قوم أم المؤمنين زينب بنت خزيمة من عقب عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ، وهم رهط أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن

من بنى عبد الله بن هلال ، وإذن : فصفية بنت حزن أم أبى سفيان صخر بن حرب هى عمة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث .

والحارث بن حرب هو أخو أبى سفيان ، والحارث هذا كان زوج صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، ثم تزوجها بعده العوام بن خويلد والد الزبير ، وخويلد هذا هو أبو خديجة أم المؤمنين ، وهذا التداخل فى الأرحام والأوشاج يعطينا فكرة ترابط القرشيين جميعاً بواسطة الصهر وترابطهم مع من حولهم من قبائل العرب ، وخاصة النَّمِر بن قاسط وهلال بن صعصعة وخزاعة بالصهر أيضاً ، وهذا التداخل يُرينا أيضاً كيف أن أبا سفيان هذا كان وسطاً فى قريش كلها ، فهو قريب كل قرشى ذى مكانة ، وفى الوقت الذى نتحدث عنه ربما يكون أبو سفيان قد أصبح صهر رسول الله ﷺ ، فلسنا نعلم على وجه التحديد متى كان ارتداد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبى سفيان عن الإسلام ، ومتى كان زواج رسول الله ﷺ منها ، ولكنه لا بد أن يكون قد حدث فى الوقت الذى نتحدث عنه أى قبيل الهجرة بقليل ، ولكن الذى نعرفه أن أبا سفيان عندما قيل له إن محمداً قد نكح ابنتك قال : « ذلك الفحل الذى لا يُجدع (أو يُقرع) أنفه » . مما يدل على عظيم تقدير أبى سفيان لمحمد على ما كان بينهما من الاختلاف والتعارض .

صارت رياسة قريش إذن لأبى سفيان قبل الهجرة بقليل ، ولا نعنى بذلك رياسة سياسية ، فذلك أمر لم تعرفه القبائل العربية فى الجاهلية إذ إن الرياسة كانت اعتبارية أو عرفية ، بمعنى أن أبا سفيان أصبح صاحب الرأى أو منفذ ما يستقر عليه رأى الملأ فى الندوة ، والأمور هنا كانت تجرى طواعية شبه العفو ، فنحن لا نحس بأن أبا سفيان أصبح رجل قريش إلا قبيل الهجرة ، ومع ذلك فنحن نعرف - وسنرى - أن أبا جهل سيتدخل فى الأمور تدخلاً يفسد تدبير أبى سفيان بعد هجرة الرسول ، وسيفرض مزاجه الغاضب الجلف على الأمور ، مما سيؤدى بذلك إلى معركة بدر وفيها كان حتفه ونهاية الجاهلية ، وسبحانه جل وعلا يُصرِّف الأمور بتدبير لا تحيط به البصائر ، وهو سبحانه غالب على أمره .

قريش تَلجأ إلى سِلاح القَول بأن محمداً ساحرٌ :

وخلال الحقبة الأخيرة من الدور المكى للبعثة المحمدية بلغت قريش أكثر ما بلغت من أذاها لرسول الله ﷺ وكان ذلك فى الغالب بعد موت أبى طالب وخديجة رضى الله عنها ، ولا نعرف إن كان ذلك قبل خروجه إلى الطائف أو بعد عوده منها ، وجدير بالذكر أن مراجعنا لا تعيننا قط على ترتيب الحوادث ، فإنهم لم يدققوا بالقدر الكافى فى توقيت الحوادث مع أهمية ذلك بالنسبة لنا . إنما هى تذكر الحوادث بعضها فى إثر بعض ، دون نظر إلى منطق التاريخ أو منطق الحوادث . ونحن هنا نبذل أقصى وسعنا فى ترتيب الحوادث على نسق تاريخى مقبول . والخبران اللذان سنرويهما فيما يلى مُؤرَّخين إلى حد ما ، فإن بعض الروايات تقول إن الترمذى يجعل هذين الخبرين بعد وفاة أبى طالب ، وتلك هى الرواية التى نقول بها هنا .

يقول الترمذى : إن قريشاً اجتمعت بعد وفاة أبى طالب بثلاث ، فأرادوا قتل رسول الله ﷺ فأقبل هذا يجأه وهذا يَتَلَبَّبه[1]، فاستغاث النبى ﷺ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ هذا ويتلتل ذا ، ويقول بأعلى صوته : ويلكم ! أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ! والله إنه لرسول الله ! فقطعت إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئذ ، فقال على : والله ليومُ أبى بكر خير من مؤمن آل فرعون ، ذلك رجل كتم إيمانه ، فأثنى الله عليه فى كتابه ، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل دمه وماله لله عز وجل[2].

وظاهر أن هذا الموقف من قريش كان نتيجة لموت أبى طالب ، فقد جرؤ القرشيون عليه حتى آذوه كل الأذى . ويبدو أنهم وجدوها فرصة ليتخلصوا منه وهم آمنون من غضب بنى هاشم ، فإن رئيسهم وهو أبو لهب من أشد الناس عداوة لرسول الله . ويستوقف نظرنا أننا لا نسمع عن موقف هنا لعمر أو لحمزة مع أن هذا هو الوقت الذى احتاج الرسول إلى وقوف أصحابه معه ، ولم يُعرِّض نفسه للأذى إلا أبو بكر كما رأينا . وكان على بن أبى طالب إذ ذاك فى حوالى العشرين من عمره . فلم

---

(١) هذه إحدى مفارقات النص الذى يرويه النويرى ، وهى أصح مما فى المتن يثلثه .
(٢) النويرى ، نهاية الأرب ١٦/ ٢٠٧ .

يكن يُنتظَر منه الكثير فى مواجهة شيوخ قريش ، ولكنه اقتدر على أن يشهد هذه الشهادة الكبيرة فى حق أبى بكر .

ويضيف ابن هشام رواية تقول : إن أشد ما لقى رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذَّبه وآذاه ، لا حُرٌّ ولا عبد ، فرجع ﷺ إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② ﴾ [المدثر] وواضح أن أول سورة المدثر لم ينزل على رسول الله ﷺ فى هذه المرحلة من الفترة المكية ، أى بعد وفاة أبى طالب وخديجة ، لأننا نعرف أنها ثانية ما أنزل عليه من قطع القرآن على ما ذكرناه آنفاً ، فقد قلنا إن (اقرأ) جعلته نبياً ، ثم جاءت الآيات الأولى من المدثر فجعلته رسولاً .

ولكننا نرى هنا أن قريشاً نجحت فى أن تحصر رسول الله ﷺ وتوقف انتشار الدعوة ، فهاهم الناس يجرؤون عليه ويؤذونه ، وفى هذه الظروف لا يجرؤ أحد آخر على الدخول فى الدعوة ، وخاصة بعد حَصْر بنى هاشم ومقاطعتهم وما أصابهم نتيجة لذلك ، وهذه الظروف القاسية هى التى جعلت رسول الله يفكر فى الخروج إلى الطائف .

ولكن قريشاً لم تطمئن ، فقد كانت تحس أن كلام رسول الله وما يتلوه من القرآن يؤثر فى قلوب الناس تأثيراً عميقاً ، وكانت مكة قبلة لألوف من الحجاج والأغراب ، وكان محمد واسع النشاط لا يدع وفداً إلا قصده وتلا عليه القرآن ودعاه ، فكيف يوقفون أثر كلامه ويطمئنون إلى أن أحداً لن يقبل منه ما يقول ؟

وسر هذا الخوف من جانب قريش ، هو أن مواسم الحج والتجارة إلى مكة كانت لا تزال عامرة بالناس ، وكان رخاء مكة كله وثراء شيوخها معتمداً على هذه الجماعات التى تفد على المدينة من كل نواحى الجزيرة ، وقريش لا تأمن أن يستمع بعض أهل هذه الوفود إلى محمد ﷺ ويتأثر بكلامه ، ويكون لذلك أثره ، إذ إن الكثير من القبائل كانت تكره قريشاً وتحسدها ، ولا يستبعد أن يدفعها الحسد إلى الانضمام إلى الدعوة المحمدية ، فتكون من وراء ذلك متاعب لقريش وهم يريدون أن يقفلوا

هذا الباب ويطمئنوا ، فأخذوا يفكرون فى وسيلة يحاربون بها محمداً ويوقفون تأثيره على الناس .

قال ابن إسحاق : « وصدرت العرب من ذلك الموسم[1] بأمر رسول الله ﷺ (والمراد هنا بخبر نبوته ، وما يتلوه من القرآن ، وهو خبر حَرِيٌّ بأن يستثير تطلُّع الناس ورغبتهم فى رؤية صاحب هذه الدعوة والاستماع إليه) ، فانتشر ذكره فى جزيرة العرب كلها . قال - ابن إسحاق - ثم ابتدأت قريش فى عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم ، فأغروا به ﷺ سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفى به مبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم»[2] وابن إسحاق هنا غير دقيق فى قوله « ثم ابتدأت قريش» لأنها لم تبدأ أذاه منذ الآن فقط ، ولكن المراد أن القرشيين عندما رأوا كثرة الوفود وكلامها فى أمر محمد ﷺ وما جاء به ، زادت فى أذاه ، ولما كانوا لا يستطيعون العدوان عليه مراعاة لحماية المطعم بن عدى إياه فقد أغروا به سفهاءهم ، ففعلوا به ما ذكره وهو صابر على الأذى ماضٍ فيما كان فيه من نقد دينهم وعيبه وتسفيه أحلامهم .

وفى إثر ذلك يروى ابن إسحاق خبراً هاماً - وهو بيت القصيد من هذه الفقرة من دراستنا - يقول فيه رواية عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عن أبى عروة وهو الزبير بن العوام عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبيه قال : قلت : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرونه من عداوته ؟

فقال : إنه حضر مجلساً لقريش فى الحِجر عند الكعبة فذكروا رسول الله وما نالهم من أذاه وقالوا : ما رأينا مثلما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفَّه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرَّق جماعتنا وسَبَّ آلهتنا ؛ لقد صبرنا منه على أمر عظيم .. ثم أهلَّ عليهم رسول الله ومرّ بهم فغمزوه بالقول وهو يطوف بالبيت ، ثم مر بهم فى طوافه ثانية فغمزوه كما فعلوا أولاً ، ثم فعلوا به ذلك ثالثة ، فوقف بهم وقال : « أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح !» وفى رواية أبى نعيم فى

---

(١) لم يحدد النص فى أى موسم كان هذا ، ولكن السياق يدل على أنه كان بعد موت السيدة خديجة وأبى طالب .

(٢) ابن إسحاق برواية ابن هشام ١/ ٣٠٩-٣١٠ ، وابن سيد الناس ، عيون الأثر : ١/ ١٠١ .

دلائل النبوة أنه ﷺ أشار بيده إلى حلقه . قال : قال ابن إسحاق : فأخذت كلمته القوم حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة - أى شدة فى الأذى - ليرفؤه - أى يهدئه - بأحسن ما يجد من القول . حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فو الله ما كنت جهولاً (أى غضوباً) فانصرف رسول الله إلى بيته ، فنهض رجل منهم يُعَيِّرهم بجبنهم عندما واجههم الرسول بالحزم المرهب خافوا منه ومضوا يترضونه ، فأدركهم من ذلك خجل .

فلما كان اليوم التالى ورأوه عند الكعبة نهضوا وأرادوا أذاه بأيديهم ليُرُوه أنهم لايخافونه ، وبلغ الأمر بهم أن نهض أحدهم وأخذ يجمع رداءه أى بمخنقه وجعل يقول له : أنت الذى تقول كذا وكذا ... ورسول الله يجيب : نعم ، أنا الذى أقول ذلك . فأسرع أبو بكر وحال بين الرجل ورسول الله وبكى وهو يقول : « **أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله** » ثم انصرفوا عنه . وهذا فى رأى راوى الخبر كان أشد ما رأى قريشاً نالوا من رسول الله قط[1].

ودلالة هذا الخبر هى أن قريشاً كانت فعلاً فى حالة خوف دائم من محمد ودعوته فقد بذلوا أقصى ما استطاعوا فى مطاردة أصحابه واضطهاد من استطاعوا اضطهاده منهم ، وأوقفوا تقدم الدعوة فى مكة ذاتها ولكنهم رغم ذلك ظلوا يخشون دعوته ، ذلك مع عِظَم هيبته فى نفوسهم وعجزهم عن مواجهته وأنه كان على استعداد لمواجهتهم بأقصى مما يواجهونه به ، فهو لا يعرف الخوف ويمضى فى طريقه غير هياب ، وهو على استعداد لأن يخوض معهم المعركة واثقاً من أن ذلك سيكون فيه هلاكهم ، وهذا ما عناه رسول الله بالذبح ، وهم لا يُقْدِمون على العدوان الخطير عليه خشية ما يمكن أن يقع من الصراع والحرب والفوضى داخل مكة نفسها ، وهم حريصون على ألا يحدث ذلك حتى لا تتأثر مصالحهم .

ثم اجتمعوا بعد ذلك وأخذوا يفكرون فى طريقة يُنَفِّرون بها الناس منه دون اللجوء إلى العنف الدموى ، فجعلوا يقلِّبون الأمر على وجوهه فاستبعدوا أن يشيعوا عنه أنه كاهن أو مجنون أو شاعر ، وأخيراً قال لهم الوليد بن المغيرة : والله إن لِقولِه

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/ ٣٠٩ وشرح المواهب للزرقانى ص ١/ ٢٥١ ، ونهاية الأرب للنويرى ١٦/ ٢١٨ .

لحلاوة وإن أصله لعَذِق - أو غَدِق ، أى غنى بالمعنى ، وإن فرعه لجناة - أى بالغ التأثير لحلاوته - وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً - أى اتهامه بالكهانة أو الجنون أو الشعر - إلا عُرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه أن تقولوا إنه ساحر . جاء بقول هو سحر يُفرِّق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم . لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره ، فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر] .

وقد استراح القرشيون لهذا الرأى ووجدوا فيه سلاحاً فعالاً فى صراعهم مع محمد ﷺ لأن كل الناس فى الجزيرة كانوا يعرفون أن السحر مهارة يكتسبها بعض الناس فى التأثير على عقولهم وحواسهم ، فيجعلون الناس يحسون ويرون ويسمعون ما لا حقيقة له ، فهى قوة تخييل مؤقتة ، فإذا أحس إنسان أنه يتأثر من كلام محدِّثه فإن ذلك ليس بصحيح ، والإحساس لا يرجع إلى أن الكلام آت من السماء أو من قوة علوية ، بل إن الإحساس وهم أو توهم يحدثه الساحر فى عقل سامعه أو إحساسه لما يسمع من القرآن الذى لا يلبث أن يزول .

ويصور القرآن طبيعة السحر فى سورة الأعراف فى مجال المباراة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون : ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف] . وإذن : فسحرة فرعون سحروا أعين الناس أى جعلوا عيونهم ترى ما لا حقيقة له ، واسترهبوهم ، أى جعلوهم يشعرون برهبة شديدة دون أن يكون معنى ذلك أنهم بالفعل عندما ألقوا عصيهم تحولت إلى أفاع ، أما موسى فعندما ألقى عصاه تحولت فعلاً إلى أفعى بأمر الله فلقفت ما ألقوا فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

وقد حرصوا على أن يقولوا لكل من يجالس محمداً أنه ساحر يؤثر بكلامه فى

مشاعر سامعيه دون أن يكون هذا الكلام حقيقة من الله ، وكان لهذا الكلام أثر فعال فى زوار مكة ، وتأثر سير الدعوة فى مكة بذلك كثيراً .

وقد رُوِّعت قريش كما رأينا لما كان من الاتفاق بين محمد ﷺ وأهل يثرب ، ولكن الأمر لم يَفُتْها ، فقد علمت بأمره ولكنها لم تفعل إلا القليل . وما كان بيدها أن تفعل أكثر من ذلك ، فإن بقية جماعة المسلمين قد أخذت تهاجر إلى المدينة كما هاجرت جماعات إلى الحبشة ، ولم يكن هناك ما يدل على أن هذه الجماعة المهاجرة سيكون لها شأن كبير فى مهجرها الجديد ، ولعل الكثيرين من القرشيين استراحوا لذلك ، ولكن شيئاً ما فى نفوس أهل الفطنة من أولئك التجار الحاسبين المهرة ألقى فى روعهم أن شيئاً ما سيحدث ، فتركز اهتمامهم على مراقبة محمد ، فما دام هو تحت أعينهم فى المدينة فلن يحدث أى شىء ، أما إذا انتقل إلى يثرب فهنا قد يكون الخطر ، لأن اليثربيين قد يتجمعون حوله ، وهم - أى القرشيين - بعقليتهم البدوية لم يستبعدوا أن يلتف اليثربيون حوله ويؤيدوه ويدخلوا فى دعوته وتنشأ عن ذلك متاعب ، ولكن أحداً منهم ما كان ليتوقع شيئاً كبيراً ، ولكنهم بطبعهم البدوى متخوفون ، شأن صاحب المال ، ويتجلى لنا هذا التخوف من جانب قريش من تفاصيل ما حدث بعد اجتماع العقبة الثانية فى خبر رواه ابن سعد ، وقد سبق أن أشرنا إليه وشككنا فى صحته ولكننا قد نشك فى الخبر بنصِّه وتفاصيله أحياناً ، ولكننا نقبله بمغزاه ومجمله وهنا - فى ذلك الخبر الذى يسوقه ابن إسحاق رواية أخرى له تختلف عن رواية ابن سعد .

فى هذا الخبر نقرأ أن معبد بن كعب بن مالك (الأنصارى) يقول : « فلما أصبحنا غدت علينا جلَّة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج : إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم» وواضح أن الخبر وصل إلى قريش محرَّفاً ، فإن القوم لم يبايعوا محمداً على حرب قريش، بل كانت المبايعة على الحماية فقط والنصرة على من يعتدى على محمد وأصحابه فى يثرب ، ولكن وساوس قريش ذهبت بها هذا المذهب ، وهو أمر معقول فى تلك الظروف .

وعلى أى حال فما نظن أن حركة هجرة كهذه من مكة إلى المدينة كان يمكن أن تخفى على قريش ، ولكن قريشاً كما قلنا لم يكن يهمها أن يهاجر من بلدتهم من يشاء الهجرة ما دام محمد نفسه باقياً فى مكة . حتى خبر احتيال أبى جهل وأخيه هشام على عَيَّاش بن ربيعة (وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما) واسترجاعه إلى المدينة والضغط عليه حتى افتتن عن دينه ، حتى مثل هذا الخبر يمكن الشك فيه ، بل إن سياقه مضطرب ، وسنده عن نافع عن ابن عمر .

ونلاحظ هنا أن كل رجال قريش من أعداء الإسلام كان لهم عدوان باللسان على الأقل على رسول الله ﷺ ، إلا أبا سفيان صخر بن حرب فليس لدينا خبر يتضمن عدواناً منه بالفعل أو القول على رسول الله أو الإسلام ، ومردُّ ذلك فيما نحسب هو الرجل كان عملياً لا ينصرف إلى ما لا طائل وراءه ، نعم إنه سيقود قريشاً فى أحُد وسيقودها فى الخندق ، ولكن ذلك شىء آخر ، فهذه حرب حقيقية بين جبهتين متعاديتين : جبهة مكة وجبهة الإسلام فى المدينة ، فأما فى أُحُد فقد كانت مكة قد انكسرت فى بدر انكساراً خطراً على مصيرها ، وكان لا بد من الرد ، ثم إن قيادة أبى سفيان هنا لم تكن سيئة بحال ، وأما فى الخندق فقد أعد أبو سفيان العدة وخرج ومعه أحلاف أقوياء ، ولم يكن فى حسبانه أنه سيلقى عَبقريةً تفوق كل ما كان يتوقع .

وقد عبَّر أبو سفيان عن ذلك تعبيراً صريحاً كما سنرى . وبعد الخندق وتأكُّد أبى سفيان أن جماعة المدينة قوة معنوية ومادية لا تقاس إليها كل قوى الجزيرة بحال ، وأن على رأسها قائداً هو الغاية فى الإيمان بقضيته والتفانى واليقظة والذكاء والبسالة ، بعد ذلك نجد أن أبا سفيان يتجه فى مواجهته لأمة الإسلام اتجاهاً عاقلاً يدل على ذكاء وحسن تصرف ، وهو فى تصرفه هذا كان يسير فى الطريق الذى رسمه رسول الله ﷺ طريق استسلام مكة دون حرب حتى تدخل بقية قريش الإسلام بقواها كاملة عزيزة الجانب محفوظة الكرامة ، فتكون قوة للإسلام .

حتى فيما يتعلق بهجرة الرسول ﷺ وأبى بكر إلى المدينة ، وهى هجرة أشبه بالهروب المدبَّر المحسوب ، لا نجد لأبى سفيان فيها أى تدخُّل يذكر ، كأن الأمر لم يكن يعنيه . كانت قريش قد تبينت بتوالى هجرات الصحابة أن هناك شيئاً خطيراً

يجرى وأن محمداً يدبر بإحكام ، فاستيقظت فيها كل ملكات الحذر والترقب ، وأذكت العيون على رسول الله حتى لا يفلت من يديها . وهنا وقريش ترى أن حركة الإسلام تأخذ شكلاً من الممكن أن يصيبها منه شر ، هنا يكون تفكير رؤسائها فى قتله والخلاص منه جملة .

وهنا نجد أن ملأ قريش - بما فيهم أبو سفيان - يجتمعون ويتشاورون ، فقد أدركوا بفراستهم أن ما يجرى فى المدينة من الممكن أن يأتيهم منه ضرر، ولا شك فى أنهم علموا بما أدركه مصعب بن عمير من نجاح فى عمله داعيةً للإسلام فى يثرب ، ولا نزاع فى أن مصعباً يعتبر - بعد رسول الله ﷺ - أكبر داعية للإسلام ، فقد ذهب ليدعو للإسلام فى بلد غريب عليه ، ولكنه كان رجلاً عميق الإيمان ، إذ هو من أولئك الشبان الذين أنشأهم الإسلام نشأة أخرى ، فقد كان قبل الإسلام من أكثر شباب قريش تنعُّماً بالحياة .

قال فيه محمد بن إسحاق : بلسان سعد بن أبى وقاص : « وكان مصعب بن عمير أنْعَمَ غلام بمكة وأجلهم صلةً مع أبويه ، ثم رأيته جهد فى الإسلام جهداً شديداً حتى لقد رأيت جلده يتحشف كما يتحشف جلد الحية[1]» وكانت أمه - وهى خناس بنت مالك بن المُطَرِّف من بنى عامر - من الموسرات ، وكذلك كان أبوه هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، فلما ندبه الرسول ﷺ بعد بيعة العقبة الثانية ليذهب إلى المدينة ليُعَلِّم أهلها الإسلام اجتهد فى ذلك اجتهاداً شديداً حتى لُقِّب بالمقرىء ، وبلغ من نجاحه أنه لم يعد هناك بيت فى المدينة إلا وفيه إسلام . ثم تبعه فى الهجرة بقية المهاجرين وفيهم عمر وحمزة ومن فى طبقتهم .

وأخذت جماعة الإسلام فى المدينة هيئة وكياناً قبل هجرة الرسول إليها ، فكان ذلك قميناً بأن يثير مخاوف قريش فاشتدت رقابتهم على رسول الله ﷺ مخافة أن يفلت منهم ، ثم رأوا أن يحسموا الأمر بقتله ، وكان صاحب الرأى فى ذلك أبو جهل ، وكان من رأيه أن تنتخب كل قبيلة شاباً ليضربوا محمداً بسيوفهم ضربة واحدة مجتمعين ، ليتفرق دمه فى القبائل ولا يستطيع بنو هاشم حربهم جميعاً ويرضون بالعقل ، فيعقلوه جميعاً .

---

(١) ابن الأثير فى أسد الغابة ٥/ ١٨٢ .

وكان ذلك ممكناً لا فى هذه المناسبة فقط ، بل فى أى وقت مضى منذ بدأت العداوة بين رسول الله ﷺ وقريش ، ولكن الله أنجى رسوله وخرج به من مكة على النحو الذى نعرفه ووصل به إلى المدينة على النحو الذى ترويه كتب السيرة لكى يقوم ببناء أمة الإسلام فى المدينة .

وبقيام أمة الإسلام فى المدينة تغيَّر الموقف بالنسبة لقريش ، وكان عليها أن تواجه تحدياً لم يكن ليخطر لأحد من رجالها على بال ، ومن حسن حظ مكة أن كان على رأسها فى ذلك الحين أبو سفيان صخر بن حرب .

* * *